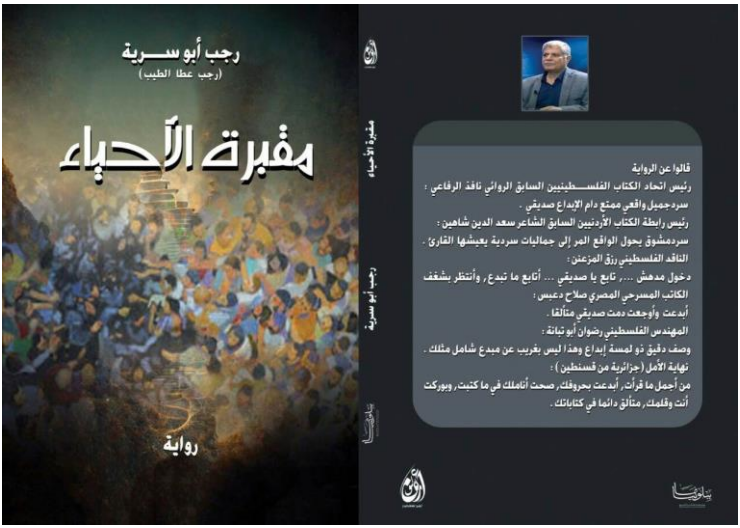
رجب أبو سرية
(رجب عطا الطب)
مقبرة الأحياء
رواية
مقبرة الأحياء
رجب أبو سرية
قالوا عن الرواية
رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين السابق الروائي ناهض الرفاعي :
سرد جميل واقعي ممتع دام الإبداع صديقي .
رئيس رابطة الكتاب الأردنيين السابق الشاعر سعد الدين شاهين :
سرد مشوق يحول الواقع المر إلى جماليات سردية يعيشها القارئ .
الناقد الفلسطيني رزق المزعنن :
دخول مدهش ...، تابع يا صديقي ... أتابع ما تبدع، وأنتظر بشغف
الكاتب المسرحي المصري صلاح دعبس :
أبدعت وأوجعت دمت صديقي متألقا .
المهندس الفلسطيني رضوان أبو ثبانة :
وصف دقيق ذو لمسة إبداع وهذا ليس بغريب عن مبدع شامل مثلك .
نهاية الأمل (جزائرية من قسنطين) :
من أجمل ما قرأت، أبدعت بحروفك، صحت أناملك في ما كتبت، وبوركت
أنت وقلمك، متألق دائما في كتاباتك .

مقبرة الأحياء

مقبرة الأحياء

رواية تحكي معاناة قطاع غزة في ظل الحصار

رجب أبو سرية
(رجب عطا الطيب)

2023

الإهداء:

إلى آخر عنقود بناتي، رهف، التي ساندتني في بناء هذه الرواية بشكل أمثل.

هل كان علينا أن نسقط من عُلُوّ
شاهق،ونرى دمنا على أيدينا... لنُدْرك
أننا لسناملائكة.. كما كنا نظن؟
وهل كان علينا أيضاً أن نكشف عن
عوراتناأمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا
عذراء؟كم كَذَبنا حين قلنا: نحن استثناء!
أن تصدِّق نفسك أسوأُ من أن
تكذبعلى غيرك!
أن نكون ودودين مع مَنْ يكرهوننا،
وقساةًمع مَنْ يحبّونَنا تلك هي دُونيّة
المُتعالي،وغطرسة الوضيع!
أيها الماضي! لا تغيِّرنا... كلما ابتعدنا عنك!

أيها المستقبل: لا تسألنا: مَنْ أنتم؟وماذا
تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.
أَيها الحاضر! تحمَّلنا قليلاً، فلسنا
سوىعابري سبيلٍ ثقلاءِ الظل!

محمود درويش

1

—

كان الظلام دامسا، حتى لا يكاد المرء يرى إصبعه، ولم يكن الأمر عائدا إلى أن السماء خلت من القمر الذي كان محاقا، بل أيضا لما اعتاد عليه قطاع غزة من انقطاع في التيار الكهربائي ،فالبيوت بعضها يضيء بالشموع، وبعضها عاد لاستخدام لمبة الكاز، ومعظم الناس باتوا ينامون مبكرا، حتى امتد الكسل في أوصالهم، وكثر نسلهم، لذا فقد كثر العمل الذي يخشى منه البعض في العلن، ليجري في السر، على عكس ما قال يوما الأمام علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، ومن باتوا يعملون في الليل ،صاروا كثيري العدد والمهمات، وكل واحد منهم يعرف حارته الضيقة كما

يعرف راحة يده، فهو يسير فيها مغمض العينين، لا يخطيء ولا تزّل قدمه، حتى يصل إلى غايته .

والأجواء في كل قطاع غزة حميمية للغاية، فالناس يعرفون بعضهم بعضا، يعيشون معا دون فواصل تقريبا، بحكم الاكتظاظ وعدم وجود فروقات اجتماعية واقتصادية كبيرة بينهم، وهم عادة ما يطلقون الألقاب على أولاد الحارة، البعض يطلق عليه لقب طيب، والآخر يصاحبه لقب قبيح، كل حسب انطباع الناس

عنه، منذ أن يظهر في الحارة وهو ولد صغير، حيث أن البعض منهم يرافقه لقبه لما بعد أن يكبر، بما يتطابق مع بعض صفاته أو مواصفاته فهذا الحدق، وذاك الهلس، هذا نص نصيص، وذاك أبو عريضة، وهذا عشيش وذاك الجرو. وهذا الأحول، لأن هناك خللا في إحدى عينيه، أو الأخنف، لأن في أنفه عيبا ما. وذاك أبو خنانة، ذلك أنه دائما ما يكون المخاط نازلا من أنفه.

ولم يقتصر إطلاق الألقاب على الذكور، بل شمل الإناث أيضا، فتلك حنيشة)تصغير أنثى الحنش(وهذه الحرباية، وتلك ام قويق، وهذه "الخوتة" لأنها قليلة التركيز أو الانتباه، وتلك "القزعة" لأنها قصيرة بشكل فاضح .

وهكذا كانت معظم الألقاب تطلق للاستهزاء والتمييز بين الأولاد حيث الأسماء عادة تتشابه، أما الألقاب فلا .

من هؤلاء "الدفش" ، الذي كان يهرول في تلك الليلة ،قابضا بكلتا يديه على الدجاجة التي سرقها، متجها إلى منزله ،وهو يعرف كيف يغلق فمها فلا تخرج صوتا يكون سببا في فضح أمره، وللحقيقة كان هنالك من شجعه على فعل

التسلل خلسة في الليالي المظلمة للبيوت والمنازل، وكذلك المحلات والدكاكين، واعتبر ذلك بمثابة تدريب وإعداد للرجل الذي سيتولى مهاما عديدة فيما بعد، وذلك شريطة أن يجتاز في كل مرة الاختبار المتمثل في تنفيذ المهمة التي توكل إليه على أكملوجه، هو الآن يقوم بسرقة ما يجده بين يديه، دون تفكير، سوى أنينتظر لحظة الظلام الدامس، فيقوم بدفع بوابة دار أحد ما، أو أن يقوم بالقفز من فوق حائطها الخارجي، حتى إذا وجد الدواجن اكتفى بها، أما إذا وجد غرفة مفتوحة الباب، وسكانها نائمين ،فيمكن أن يتشجع ويدخل على أطراف أصابع قدميه فيسرق أي شيء يجده .

ليس بعيدا عنه، كان ضوء المصباح اليدوي يكشف عن مركب صغير يجلس في عرض البحر، يمتطي صهوته "البشوش" ، الذي يلقي بشباكه وينتظر هبة البحر، يحتمل مطر السماء في الشتاء حيث يكون خير البحر وفيرا، وهو الذي ورث مهنة صيد السمك عن أبيه وعن جده، ويسعى جاهدا، لأن يورثها لأبنه الباشمهندس ،الذي تخرج من الجامعة قبل خمس سنوات، وبقي كما هو حال كل خريجي

الجامعات بلا عمل، يجلس مع أبيه ويتأفف، يعاونه ولكن على مضض، ولا يكف عن الحديث عن الأفق الممتد بعرض البحر، الذي يطوي سره وطموحه في أن يذهب بعيدا ،حتى لو كان في ذلك أن يترك أباه وأمه، في هذا الليل الطويل ،دون أن يكون لهما أمل تستند إليه شيخوختهما، بل ودون حتى أن يحقق لهما الأمنية التي ينتظرها كل رجل وامرأة يتقدم بهما السن، وهي أن يريان أحفادهما .

2

—

في ظل العتمة، تضطر فدوى أن تندس في الفراش مبكرا، فإن كان الفصل شتاء، تغطت باللحاف الصوفي، الذي يبث الدفء في جسدها، أما إذا كان الفصل صيفا، فإنها تتغطى بشرشف خفيف، حتى تبعد عنها "قرصات" الناموس الذي يملأ الحي. لا تتيح لها العتمة فرصة التحضير الجيد ليوم الغد، ولا حتى أن تفتح اللاب توب لتقرأ شيئا أو حتى تتفرج على فيلم أو مسرحية، لا عبر الانترنت ولا عبر التلفزيون، ولأنها تندس في الفراش باكرا ،فإن النوم لا يحل بها سريعا، لذا فإنها تستعين بمخيلتها لتؤنس وحدتها، التي تعمقت

منذ ماتت أمها وتركتها وحيدة مع أبيها الذي يغيب معظم الليل عن البيت، والنوم لا يغلبها تماما، بل هي حتى حين تنام، يكون نومها خفيفا، تصحو على أية حركة، ذلك أن الخوف والتوجس يلازمانها، رغم أن الحارة مكتظة بالجيران ،بل إن بيوت المخيم معروفة بصغرها وتلاصقها، حتى يكاد المرء يشعر بأن أهل الحارة إنما يسكنون بيتا كبيرا واحدا، مثل الحوش أو العقد الذي كانت فعلا الأسر الكبيرة تسكنهما قبل عقود من السنين في المدن الكبيرة والعتيقة . تفتح العتمة الباب لمخيلة فدوى فتملأها بالأحلام، التي تبدأ باستعراض كل ما جرى لها من أحداث طول اليوم .

أما هو فإنه ما أن يجد فرصة لينشغل عنه أبوه حتى يبدأ هوالآخر في تصفح جواله المفتوح على صفحة الفيسبوك، ويأخذبالتعليق على بوستات أصدقائه وزميلاته أيام الجامعة اللواتي تزوج معظمهن مترافقة مع الأيموشينات المختلفة، الرومانسية منها بما فيها من قلوب وشفاه وورود، والغاضبة ذوات الوجوه الحمراء أو الشريرة، أو المضحكة وما إلى ذلك، ويقضي معظم أوقات فراغه، وهي أوقات طويلة، في ممارسة ألعاب السوليتير المختلفة. ويظل هكذا إلى أن يشعر بالملل، فيشغل نفسه بعد

النجوم تارة، وترقب السماء الصافية، إن كان الفصل صيفا، كما يراقب حركة الأسماك حين يقوم أبوه بإلقائها في قاع المركب ،فتبلعط وهي في النزع الأخير، فيشفق عليها، يهم بمطالبة أبيه بالتوقف عن هذه المهنة، لكنه يصمت، فهو لا يحبذ الدخول في حقول خلاف أخير مع أبيه، وينتظر أن ينتهي الصيد، ويطلع الفجر، ليذهبا إلى حسبة السمك، لبيع ما جاد عليهما به البحر .

3

أن يكتفي الدفش بابنة وحيدة، وأن يبقى عازبا دون زوجة، كل هذه السنين، يبدو الأمر غريبا للغاية، خاصة في عرف وتقاليد وثقافة أهل قطاع غزة، الذين لا يكتفون بإنجاب ولد أو اثنين أو ثلاثة ،وكثير منهم لا يكتفي بزوجة واحدة، من أجل إنجاب أكبر عدد منالأبناء، ومن أجل المتعة أيضا، واعتاد الرجل على أن يجيب كلمن يسأله في هذا الشأن إجابة واحدة تنسجم مع طبعه، قائلا:

وانت ايش دخلك، حياتي وأنا حر فيها يا أخي .

أما هي فقد رأت كل صفات الرجولة والإخلاص في أبيها ،وكانت تقول لنفسها :

أكيد بابا كان بيحب ماما كتير، لدرجة أنه مش مستوعب يعيش مع وحدة غيرها.

ثم تتابع متسائلة:

معقول إنه مش مفكر يتزوج عشاني أنا، طيب مهم كتير في رجال لما يترملوا، بالعكس بتزوجوا بسرعة عشان أولادهم ،يعني يجيبوا أم ثانية لأولادهم .

تحتار بين أي الإجابتين هي التي منعت أباها من الزواج من امرأة ثانية، فتستسلم لحالة الحيرة، وتفكر في شيء آخر .

4

—

فيما كانت فدوى، على وشك أن تغفو، كان الرجل العائد للبيت، وفي جعبته صيده، يقترب من البيت، يرتدي طاقية الصوف التي تعتبر ماسكا يغطي الوجه، بعد أن تلبس الرأس كله، والتي ترتديها كل العناصر العسكرية، منذ أن

كانت قواتالاحتلال تحتل البلد، وكان المطاردون الذين ظهروا في آخرالانتفاضة الكبرى يرتدونها حتى لا يعرفهم أحد، أو يدل عليهم عميل ما، وصارت بعد ذلك رمزا لكل الأجنحة العسكرية للفصائل الفلسطينية حتى اليوم، أي حتى ما بعد خروج الاحتلال العسكري الأسرائيلي ومستوطنوه من كل قطاع غزة ،ومن ثم استخدم القناع حين اندلعت حرب الأخوة/الأعداء بين حركتي حماس وفتح، واستمرت عناصر القسام وعناصر القوة التنفيذية وكل عناصر أمن حماس في ارتدائها، خشية أن يعرفهم الناس !

لكن الرجل كان مجرد أن يدخل حارته حتى يتلفت حوله ،وحين يتأكد من أن أحدا لا يراه يقوم بنزع القناع، ويذهب مباشرة نحو بيته، يفتح الباب ويدخل، فإن كانت ابنته قد نامت، يدخل حجرته وينفرد بنفسه، أما إن كانت ما تزال لم تنم، يطلب منها أن تحضر له العشاء، بعد أن يناولها الصيد الذي جاء به .

لا يعرف أحد، لا الجيران ولا فدوى نفسها، من أين يحضر إبراهيم الدفش النقود، أو أين يمضي طيلة النهار،

حيث لا يظهر عادة إلا في ما بعد العصر خارجا من البيت، ومن ثم عائدا عند منتصف الليل، لذا فقد تهامس الناس حول ما يقوم به الرجل. وكان هو يشعر في قرارة نفسه بالسعادة مما يثيره من حيرهفي عقول الجيران، أما فدوى فلا تجرؤ أصلا على سؤاله، وهوالرجل الغامض الذي لا يجالس أحدا لا في الحارة ولا على شاطيء البحر، ولا يكاد يذكر أنه زار قريبا أو جارا أو صديقا ،رجل يكاد يكون غريب الأطوار، لكنه كان على عادة أن يلقي السلام على من يراه وهو مار بالطريق، وكثيرا ما كان من يلقي عليهم السلام، خاصة من الصيادين، يردون عليه السلام بالكلمة التلقائية: تفضل، فيتفضل ليشرب مع أحدهم الشاي، أو حتى ليتناول الطعام الذي غالبا ما يكون وجبة سمك مع السلطات الطيبة التي يعدها الصيادون مما يصطادونه، وهكذا كان الدفش معروفا بين أهل البلد بأنه رجل في حاله، أو أنه على باب الله .

5

كانت الشهادة الجامعية تعني للفلسطيني الشيء الكثير، فهي تنتقل بالشاب من مرحلة يعتمد فيها على أهله، إلى مرحلة يعتمد فيها على نفسه، فيبدأ بالتفكير في الزواج وتأسيس بيت خاص ،أما إذا كان أهله، كما هم معظم الناس بحاجة لمساعدته، في التكفل بدراسة إخوته، أو بتحسين ظروفهم المعيشية، فإنه قبل التفكير بنفسه يقوم برد الدين لأبيه وأمه عن حب وطيب خاطر ،وكانت الشهادة الجامعية تعني رخصة تؤهل الشاب في مقتبلعمره للعمل، أما اليوم فقد صارت لا تقدم ولا تؤخر، بل تدفعبصاحبها لدخول عالم البطالة، وفقدان الأمل الذي كان بعد عام 1948 حافزا عوض الفلسطينيين عن فقدان الأرض التي كانوا يعيشون من فلاحتها، بتعليم أبنائهم الذين ما أن يتخرجوا حتى يقوموا بإخراج أهلهم من حفرة الفقر المدقع، وهكذا عوض التعليم الفلسطينيين عن الأرض المسلوبة من ناحية المعيشة ،حتى صاروا من أكثر الشعوب تعلما وثقافة .

كان هذا حال نبيل، الذي لم يغير تخرجه من الجامعة مهندس كمبيوتر شيئا، رغم ما تبع يوم التخرج من أفراح

وتهاني ومباركات، ورغم أن أباه وجد في المركب الذي هو مصدر رزقهم بابا ليخرج الابن من قنوطه، إلا أن الشاب في قرارة نفسه ،كان يقول بأنه لم يدرس مهندسا في الجامعة من أجل أن يصيد السمك، وكان بإمكانه أن يوفر سنوات ومصاريف الجامعة ،وينخرط في مهنة أبيه دون أن يكلفه ذلك شيئا. أشهر قليلة ،وكانت الأسرة تفكر في حل ما للشاب، حتى استقر الرأي على أن يشتري سيارة يشتغل بها على الخط، فيشعر بأنه منتج، وليس مجرد مزاحم لأبيه على رزق العائلة الذي لا يزداد كثيرا بمرافقته إياه، لكن المشكلة هي كيف ومن أين يمكن لهم أن يتدبروا ثمن السيارة المنشودة؟

سارعت الأم إلى جلب ما لديها من مصاغ قليل، ووضعتهأمام ابنها، فيما الأب خرج لبعض الوقت وعاد بمبلغ من المال ،اقترضه من أصحابه، لكن ما جمع بالكاد يكفي لشراء نصف سيارة مستعملة، لكن مع ذلك بدأ الشاب بالبحث حتى عثر على سيارة، دفع ما لديه كدفعة أولى، وكتب بما تبقى كمبيالات للبائع، على أمل أن يقوم بتسديدها مما يجلبه من عمله عليها.

6

على ضيق ما يسمى بقاع الدار، والذي ربما لا يتجاوز مترا عرضا ومترين طولا، ملاصقا للجدار الخارجي، إلا أن السيدة صبحية، بنت في الركن الداخلي قنا للدجاج والبط، كما أقامت على الجدار من الداخل بيوتا للحمام، فيما زرعت إضافة للدالية وشجرة الليمون، الريحان الذي تجعل منه تقلية مع الثوم حين تطبخ البامية، كذلك كانت هناك شتلات البصل الأخضر والفجل والملوخية، وهكذا تقضي وقتها حين يكون زوجها وابنها خارج البيت، تطعم طيورها، وتسقي شجراتها ونباتاتها، وبعد أن تنتهي تقوم بالتطريز، إلى أن يحين وقت إعداد طعام الغداء، ووقت السيدة صبحية الذي تكون فيه وحدها عمليا هو أكثر من الوقت الذي تكون فيه مع زوجها وابنها، لكن منذ أن اشترى الابن السيارة واشتغل بها على الخط، صارت تقضي جزءا من الليلمع الابن، بعد أن كانت تقضي معظمه وحدها.

وحكاية السيدة صبحية مع الطيور ومع النباتات هي حكاية الفلسطيني، الذي يعشق الأرض، ويرافق الشجر

كما يرافق البشر، وهذا يعود إلى أن معظم الشعب الفلسطيني هو من الفلاحين الذين تشكل الأرض مصدر رزقهم وشريان حياتهم ،تجدد للطيور كل صباح الماء، وتنادي على دجاجتها وبطاتها كما لو كن صديقاتها، حتى أنها أطلقت عليهن أسماء من أحبت أو من عرفت من الأخوات أو القريبات أو الصديقات، فواحدة أسمتها سمية، وأخرى أسمتها المشحرة، وكانت تطلق على البطة البيضاء المكتنزة اسم الحاجة مريم على اسم عمتها التي كانت مضرب المثل في الجمال، حيث كانوا يرجعونه إلى جدتها التي كانت من مدينة الخليل، تتذكرها وهي مسنة، وجهها مثل قرص الجبن، شديد البيضاء، ممتلئة، أما الليمونة فكانت تقترب منها، وتهمس لها بكل ما تود قوله من كلام الشوق لأخوتها الذين هم في الغربة، تشم رائحتها، وتقول لها أنت أمي، تحدث طول الوقت الطيور وشجرة الليمون، أما الدالية، فتقول لها أنت مثل أبي الذي كان يفرد عباءته علينا فنمتليء بالطمأنينة .

بعد أن تخرج نبيل من الجامعة، بدأت أمه تفكر في وضع حد لوحدتها من خلال تزويجه، ومنذ ليلة الاحتفال بتخرج الباشمهندس، رقصت وغنت وهاهت السيدة

صبحية، وحضنتابنها وبكت، ثم قالت: عقال ما افرح بيوم عرسك ياأمة !

وحين رأت ابتسامته، تشجعت وتابعت قائلة: يا درى يا مين درى، تكمل فرحتي وقبل ما تخلص السنة، نجوزك، وتوجه بالكلام لزوجها قائلة: ايش رايك يا أبو نبيل؟ أنا مني وعلي من بكرة بطلع ألف أدور له على أحلى عروس.

حين سمع نبيل تلك الكلمة، انفجر بالضحك، قائلا: كمان أنت بدك تدوري لي عالعروس يا أمة؟

طيب أنا ما بيهون علي أغلبك، أيش رايك إني حاطط عيني على وحدة؟

فوجئت، وقبل أن تأخذها الدهشة، سألته:

عن جد بتحكي ياأمة؟ مين هي بنعرفها؟ اه مهو أنت شغال ع الخط، وبتطلع مع بنات أشكال ألوان، لا اوعك يا بني تكون تعلقت بأي وحدة، بلاش تطلع اي كلام، لازم أشوفها الأول ،ولازم أبوك يسأل عن أصلها وفصلها، وبعد هيك بنقول أه أو لا .

7

كان من عادته بعد أن يتناول طعام العشاء، أن يطلب من أبنته أن تغلق عليها باب حجرتها، ثم يذهب هو لغرفته ويغلق بابها ،ولا ينام إلا بعد أن يدس "الموس الكباس" تحت مخدته، ذلك أنه يعتقد جازما بأن السلاح يطرد الكوابيس، وبأن من ينام ومعه سلاح لا يحلم أحلاما مزعجة، لكنه رغم ذلك، تفاجأت ابنته ذات ليلة حين سمعته، يتأوه بصوت عال، كما لو كان يتعرض للخنق، قفزت يومها من فراشها، ودقت على باب غرفته، إلى أن صحا، فناولته الماء، وسألته عما به، استغرب هو من حالته، ومن الكابوس الذي جاءه في المنام، ثم تكرر الأمر بعد ذلك كثيرا.

كان يرى في المنام، جمعا من الرجال المقنعين، يقومون بضربه في كل أنحاء جسده، وهو مربوط إلى كرسي،معصوب العينين لا يرى شيئا، ولاصق على فمه يمنعه من الصراخ بما يخفف من وطأة العذاب الذي حل بروحه، إلى أن أغمي عليه ،وحين صحا وجد الدماء تسيل من كل أنحاء جسده، ومنذ ذلك اليوم شعر بأنه قد فقد الشهية، ليس للأكل فقط، ولكن إلى شيء ربما يكون أهم

من الأكل والشرب، ولم يعرف أحدا ممن تولوه بالضرب، وكان كل شيء قد تم بسرعة فائقة، كما لو كان في حلم عابر، أو في كابوس بمعنى أدق .

منذ تلك الواقعة، لم يخرج الدفش من بيته إلا ومطواه في جيبهوعصاه في يده، يمشي وهو متحفز، يتلفت يمينا ويسارا، يشك في ظله، ولا يثق بأحد، وكان يسير على قدميه معظم الوقت ،يجوب المنطقة من غربها لشرقها، ومن شمالها لجنوبها، حتى أنه صار واحدا ممن يعرفون ليس مدينته التي ولد وعاش فيها وحسب ولكن ربما كل قطاع غزة، وعلى عكس جيرانه الذين يعشقون الغرب، أو التوجه دائما صوب البحر، كان هو يحب أن يذهب شرقا، حيث الأراضي الزراعية والأشجار، يجلس وحيدا، ويصطاد العصافير، حيث كان ذلك ممكنا، حتى صار رفيقا للبرية، ولولا وجود ابنته في حياته، لربما ما كان فكر في العودة للبيت، ولا في أن يسكن كالآخرين في بيت له جدران وأبواب ونوافذ، وظل هكذا يفضل التنقل في البرية، التي صارت على كل حال تتضاءل شيئا فشيئا، وما بقي منها صار خطرا، حيث ليس بعيدا تترقب عيون القنص المعادية الطير الطاير لتصطاده .

8

في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة جدا، هناك ألف سبب وسبب، يدفع أولياء أمور الطالبات بالتحديد للتردد عن تفضيل خيار متابعتهن للدراسة الجامعية، لكن أيضا خيار الزواج بات هو الآخر صعبا، للسبب الاقتصادي نفسه، فمن من الشباب لديه المال الكافي لدفع المهر ومصاريف إقامة العرس، ثم فتح بيت مستقل، فضلا عن توفير البيت نفسه، قبل كل هذا، لكن إزاء تفوق البنات، اللواتي بتن يحصدن معظم المواقع الأولى في الثانوية العامة، فإن منهن من تحصل على منحة دراسية، ومنهن من يفكر أهلها بتعليمها في الجامعة لعلها تحصل على وظيفة، أو زوج مناسب، وحتى العرسان باتوا يتسابقون على الموظفات ،وهكذا فإن من تظفر من البنات المتجاوزات للثانوية العامة بتفوق، بمقعد جامعي، تعتبر محظوظة، ولهذا فهي تدافع عنه بكل ما أوتيت من قوة، فأي تهاون قد يكون مبررا لولي الأمر ،لإجلاسها في البيت .

حتى لو توفرت منحة للطالبة المتفوقة، فإن الشرط الاجتماعي الذي يلتزم به ولي أمرها، هو أن تكون الدراسة الجامعية داخل القطاع، فمن رابع المستحيلات أن يوافق ولي أمر على أن تذهب أبنته أو أخته للدراسة الجامعية في الخارج، بغض النظر، في أي بلد عربيا كان أو أجنبيا ستكون دراستها .

وما أن تبدأ الدراسة الجامعية، حتى بالكاد يوفر الأهل للطالبة الجامعية أجرة المواصلات من البيت للجامعة والعكس، وحين يجري الحديث عن طالبة تسكن في رفح وتدرس في غزة، فإن ذلك يعني مبلغا تحسبه عائلتها بدقة، لذا فإن الطالبات من هؤلاءتحاولن بأي شكل التقليل ما أمكن من مصروفهن القليل أصلا ،ويبدأن بما يخص المواصلات . ولهذا فإن معظمهن يتفقن فيما بينهن على عقد أتفاق مع سائق يذهب بهن للجامعة ويعود بهن إلى بيوتهن، بدلا من ركوب سيارات "السرفيس" كل يوم ،وهكذا يمكن أن توفر الطالبة من مصروف المواصلات ما نسبته 20%، أما السائق فإنه بدوره يضمن مبلغا شهريا، لو

أنه حصل على مثيله من خلال البحث اليومي الدءوب عن الركاب، فإنه يكون بذلك قد أمن على مصروف البيت.

لكن جمع خمس طالبات تتوافق مواعيد محاضراتهن ويسكن في نفس الحي، ليس بالأمر السهل، ولحل هذه المشكلة، عادة ما تتفق اثنتان أو ثلاث تكونان أو تكن جارات أو حتى زميلات في مدارس الثانوية، أو صديقات عادة ما يحصلن على معدلات متقاربة، على أن يبحثن عن سائق، ثم يبحثون معا عمن يكملون بهن حمولة السيارة، والتي هي خمس ركاب، وهذا ما حصل مع نبيل، وهكذا صار بمقدور الشاب أن يشعر بأنه قد حصل على عمل معقول، في ظل ظروف قطاع غزة الصعبة جدا، خاصة على الصعيد الاقتصادي، وأكثر خصوصية على صعيد فرص العمل لخريجي الجامعات .

بدأ نبيل بالمرور على بيوت البنات ليستقلهن إلى الجامعةوكان من الطبيعي أن يبدأ بفدوى إبراهيم، ذلك أن بيتها هو الأقربلبيته، لم ينزل من السيارة بالطبع، فليس من اللائق أن يقف أمام باب البيت ويدق الباب، لتخرج له، بل إنه ما أن اقترب من بيتها ،حتى أرسل لها رنة هاتف، فكانت تخرج من باب المنزل في نفس اللحظة التي كانت تصل فيها السيارة، فتحت الباب الخلفي وألقت تحية الصباح وصعدت، ثم واصلا المرور على الفتيات الباقيات، فكانت التالية تصعد إلى جوار فدوى، وهكذا أصبحت فدوى في المقعد الخلفي الذي يقع وراء السائق تماما، في حين كانت الرابعة تجلس إلى جواره، أما الخامسة فكان نصيبها أن تجلس بجوار نافذة المقعد الأمامي، وهكذا تحددت منذ اليوم الأول مقاعد الفتيات في السيارة التي ستواظب على نقلهن من بيوتهن إلى الجامعة، ثم تعود بهن بالاتجاه المعاكس .

بعد مرور الوقت، صارت المرآة صلة وصل بين عيون نبيل وفدوى، هي تشعر بأنها تعرفه منذ زمن، وهو شعر

بارتياح تجاهها ،ولأنها كانت أول من يصعد للسيارة، وآخر من ينزل منها، كان يرى بأنها تقضي معه وقتا أطول بدقائق من زميلاتها، فمازحها يوما، قائلا بأنه يريد منها زيادة في الأجرة عن زميلاتها، نظرا لأنها تركب وقتا أطول منهن، فما كان منها إلا أن ردت عليه بالقول، إذا مش عاجبك أجرتي، إما بدور على سائق غيرك، أو إنك من بكرةبتروح تجيب صاحباتي، وبتخليني للآخر، ولما نروح بتوصلنيالأول، وبعد هيك روح وصلهم بالترتيب اللي يعجبك .

ضحك من أعماقه، وأعجب بشجاعتها وجرأتها وكذلك بسرعة بديهيتها وذكائها، ورد قائلا: له يا ست فدوى، أنا كنت بمزح معك.

سارعت إلى القول: ما أنا عارفة انك بتمزح، ولو هو مش مزح ما كنت رديت عليك أصلا، وكنت قلت لك، بكرة لا تمر علي ،وعملت لتلفونك حظر، وخبرت صاحباتي يدوروا على وحدة غيري، أو ندور كلنا على سائق غيرك .

كان خاسرا في الحالتين، لكنه ربح الحديث مع فدوى، كان هذا الحوار فاتحة الحديث بينهما، الذي تطور في وقت قصير إلى تعبير عن الإعجاب المتبادل، خاصة بعد أن فوجئت فدوى من كون نبيل متخرج من كلية الهندسة، ومن أنه ليس سائقا غير متعلم مثل الكثير من السائقين الذين لا يكملون دراستهم لأكثر من سبب، ويمتهنون السواقة كمهنة، لكنها بالطبع لم تعرف بأنه يسكن قريبا منها، وعلى بعد شارعين فقط، يقع بيته من بيتها، وإن كانت قد قدّرت بأن بيتها كان الأقرب لبيته من بيوت زميلاتها ،كونه يقلها أولا .

ولهذا صار نبيل، ما أن يقترب من الجامعة في رحلة العودةحتى يبادر للاتصال بها هي بالتحديد، ليعرف إن كانوا فيانتظاره فيتوجه لبوابة الجامعة، وبالطبع كان دقيقا في مواعيده ،ولم يحدث وأن تأخر عنهن، حتى لو عرض عليه طلب توصيلة مغرية، يمكن أن تحول دون ذلك .

9

منذ أن توفيت أمها، وخالها يتكفل بها، فقد اعتبرها هي كل ما تبقى له من أخته الراحلة، يرسل لها كل شهر ما تحتاجه من مصاريف، كما يرسل لها كل فصل دراسي رسوم الجامعة ،ويضيف مبلغا آخر كمساعدة لوالدها، والذي هو أيضا ابن عمه ،الذي كان منذ كان شابا يبدو لا مباليا وغير مسئول، فزوجوه ظنا منهم بأن الزواج سيغيره، لكنه بقي كما هو، يبقى خارج البيت معظم النهار، يتجول شرقا وغربا، ولا يبقى في مهنة محددة، إذا ما سمع بتسجيل أسماء لمساعدات ذهب وسجل اسمه، إذا رأى طابورا، سارع واصطف وراء آخر شخص، حين يذهب للشرق يصطاد العصافير، وإذا سار مع شاطيء البحر، نفخ البلالين وصنع الطائرات الورقية، وباعها للأطفال الصغار، يفعل أي شيء عابر ،ويعود للبيت لينام .

أصيب الدفش بالحالة النفسية مرتين، الأولى حين تعرضللضرب من قبل مجموعة من الرجال، بعد أن عصبوا عينيةووضعوا اللاصق على فمه، وبقي أشهرا طريح الفراش ،ما أن ينام حتى تنتابه الكوابيس، يصرخ بصوت

مكتوم .والثانية، حين ماتت زوجته وأم ابنته الوحيدة، فصار يجد في المشي، كما لو كان هائما على وجهه، متنفسا له، يبتعد ،لكن الحدود، تقف له بالمرصاد، تمنعه من الابتعاد أكثر مما يجب، وصارت عادة لديه أن يجوب كلما وجد وقتا قطاع غزة من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، ويقول ما دمنا محاصرين في هذه البقعة الصغيرة، علينا أن نجوب كل سنتميتر فيها .

في ذلك اليوم، كاد أن يقضى عليه، فبعد أن باع ما كان لديه من بلالين وطائرات ورقية على شاطيء البحر، بقيت معه واحدة، سمع فجأة بأن الناس يذهبون للخط الشرقي بالبلالين والطائرات الورقية، فانضم إليهم، وهو لا يعرف لماذا هم يذهبون إلى الحدود الشرقية، وهناك عرف بأن اطلاق الطائرات الورقية صار عملا وطنيا، اندفع وتقدم الصفوف، فقد سمعهم يقولون بأن رئيس حماس قد وصل، لوح له من بعيد ،وشعر بأنه قد بات رجلا مهما، وما هي إلا لحظات وبدأ إطلاق النار، اندفع الكثيرون مبتعدين عن الخطر، لكنه على عكسهملوح بالحجارة وألقى بها على

العدو، فانتهى اليوم بإصابتهفي كتفه، حيث نقل للمستشفى، ومنذ ذلك اليوم صار جريح مسيرة العودة .

منذ ذلك اليوم لم يفوت الدفش يوم جمعة دون أن يشارك في مسيرات العودة، ولأنه بارع في صناعة الطائرات الورقية ،تم ضمه لوحدة البلالين الحارقة، وهكذا صار طوال الأسبوع يقوم بتحضير البالونات، وإعداد المكلفين بإطلاقها، ثم ترتيب الأمكنة، والمواعيد المحددة، وشيئا فشيئا وجد نفسه ضمن التنظيم الخاص بالمسيرات، ووحدة البالونات واحدة من أهم وحداتها، بل هي الوحدة الضاربة، أو العسكرية، وتبع هذا تخصيص ميزانية، كذلك توفير معدات تشمل سيارات وقوات حماية، وتوفير بيوت لتخزين البالونات والغازات الخاصة، كذلك الطائرات الورقية وما يرفق بها من علب أو زجاجات مولوتوف، حتى صار الدفش قائدا ميدانيا يشار له بالبنان، عند ذلك طلب من الحركة سلاحا خاصا لحمايته شخصيا، وتوفير قوات الحماية، كما حصل على بطاقة شخصية تتضمن رتبة عسكرية .

10

في طريق العودة نظر في المرآة وابتسم، بادلته الابتسامة، ولم تدر ما ينوي قوله، ولكن لأنها باتت تعرفه جيدا، فقد خمنت بأنه ينوي أن يخبرها بشيء ما، أما هو فمر بذاكرته شريط المساء، حين عرضت عليه أمه عددا من الصبايا، كن جميعهن للتمويه، فهو يعرف أمه جيدا، ويعرف أنها ما زالت على اختيارها الحقيقي ،وهو ابنة أختها أحلام، التي لا تتوقف عن ذكر جمالها وخصالها ،وحين قال لها بأنه سيسأل أباه ليقف عند رأيه، أجابته:

أنت ايش رايك، إذا موافق، أنا باحكي لأبوك وبفاتحه

قاطعها قائلا: بدك تقولي له ابنك بده بنت خالته، وهيك من الصعب أن يقول لا، ما دام أنا بدي إياها، يا أمة أكم مرة حكيت لكو أنت وابوي، لا بدي بنت خالتي متل ما بدك أنت ولا بدي بنت عمي متل ما بده ابوي.

ردت عليه بحنق: وألا مين بدك، بنت مين يعني، حاطط عينك على حدا، صارحني يامة، أنا ما عندي مشكلة، منى

عيني أشوفك عريس، لو بدك مين ما بدك، إذا حاطط عينك على وحدة، ما بأقدر أعرض عليك لا بنت أختي ولا بنت أخوي، أما إذا ما في ببالك حدا ،يا بنت أختي يا بنت اخوي أو حتى بنت عمك أولى من الغريبة .

طلبوا منه أن يسير على الطريق الساحلي، ويبدو أنهن قد رتبوا أمرا ما، وفعلا ما أن مر قريبا من "حيفا" حتى سألوه إن كان بمقدورهن أن يسترحن قليلا لتناول البوظة اللذيذة . توقف حتى نزلت البنات، وخجل هو من مرافقتهن إلى داخل الاستراحة، وما هي إلا ربع ساعة، وكانت استراحة الفتيات قد وصلت لنهايتها ،حينها صعدن للمركبة، وتابعوا طريق العودة مجددا .

نزلت كل زميلاتها وبقيت هي وحدها معه، فبادرته بالسؤال عما يود قوله لها، تصنع كمن لا يعرف معنى سؤالها وقال: أنا أريد أن أقول لك شيئا؟ متى قلت لك هذا؟

لم تترك له مجالا "للاستهبال" وقالت: اسمع يا نبيل، أنا صرت أعرفك منيح، ومن نظرة عينيك بأعرف ايش بدك تحكي ،هلا بدك تقول لي شو بدك تحكي لي، وألا لا؟

ضحك قائلا: آه منه ذكائك، بتفهميها ع الطاير، لا والله حتى قبل ما تطير، أنا أصلا ايش اللي حببني فيك، إضافة لجمالك وأخلاقك غير ذكائك ،،

قاطعته متسائلة: ايش قلت؟ حببك في؟ شو هاد اعتراف وألا زلة لسان.

أجاب: اعتراف وإعلان صريح وأنا بكامل وعيي وقواي العقلية، ومن جوة قلبي وعقلي، أنا بحبك كتير يا فدوى، وبدي أعرفك على أمي . شو رايك؟

ردت : رأيي بحبك وألا بأنك بدك تعرفني بأمك؟أجاب بما يشبه الهمس: بالأتنين قالت: أفكر، أمهلني كم يوم.

قال: تفكري بأني أعرفك على أمي، وألا بالأتنين.

قالت وهي تضحك من أعماق قلبها: بالأتنين طبعا يا فصيح ،وألا لتكون مفكر متل كل رجال الشرق العربي، إنه مجرد ما تعجبك البنت أو تحبها، هي شبيك لبيك، ويمكن ما تستوعب حتى إنها ترفض حبك أو عرضك بالزواج؟

اندهش من ردها، وحتى لا يصاب بالإحباط، خففت من هجومها ولهجتها وقالت: عموما وبشكل أولي، أنا ما بأنكر إني معجبة فيك، لكن ما دام الأمر بعرضك هاد صار جدي، لازم أفكر منيح قبل ما أقول لك، أنا كمان بحبك، وموافقة تعرفني على أمك .

اطمأن بعد هذه الكلمات، وقال في نفسه، بأنها ترغب في أن تهيء نفسها للقاء أمي، ربما تريد أن تضع ماكياجا، وأن ترتدي زيا مختلفا عن الزي الجامعي، حقا لا يعقل أن تأتي للقاء أمي وهي عائدة من يوم جامعي، يغطي العرق جسدها، وهي على مثل هذه الهيئة .

11

منذ اليوم الأول لها في الجامعة لاحظت بأن الدكتور محمد "عينه منها" ، يكثر من النظر إليها، كما أنه يوجه لها الأسئلة المتعلقة بالمحاضرة أكثر من غيرها، ولأنها أنثى وذكية، تعرف طبيعة النظرة، كما أنها بدأت هي بدورها تهتم لاهتمامه بها ،لتعرف في نهاية المطاف ما الذي يفكر به نحوها، لاحظت أنه لا يخاطبها بيا ابنتي كما يليق، بل إنه وفيما يبدو واضحا سعى إلى التعرف عليها من أول يوم، حين أشار إليها وقال: خلينا نسمع الجواب من: ايش اسمك يا آنسة؟

- فدوى

- آه فدوى اسم جميل، فدوى طوقان !

بعد أيام، كان يسألها إن كانت تتقن الطباعة على الكمبيوتر ،وحين أجابته بالطبع يا دكتور، رد قائلا: ممتاز، طيب أنا عندي شغل إلك، وأنت بالبيت، كل فترة باعطيك شوية ورق تطبيعها وورد، وتاخدي اجرتك. شكرته وقالت له: ولو يا دكتور، المعلم والد، ومن غير فلوس واجب علي، لم يعجبه الرد، لكنه كان ذكيا، وقال: ما شاء الله، كريمة النفس أنت يا فدوى، ما شاء اللهجمال وشخصية، وتفحصها من راسها لساسها .

كانت قصة الطباعة كما قدرت تماما، فرصته للقائها بشكل شبه يومي، دون أن يعني ذلك مشكلة لا له ولا لها، وكانت اللقاءات المتتالية فرصته ليسألها عن أدق تفاصيل حياتها، أنت وين ساكنة، ياه مشوار عليك كل يوم، طيب ليش أنت وحدانية ،اها طيب أمك الله يرحمها، وأبوك ليش ما تجوز بعدها، طيب وأنت لا مخطوبة ولا مقربة فاتحتك، أحسن، طيب ولو تقدم لك عريس بتوافقي وألا بتقولي لما أتخرج واشتغل، طيب عندك شروط معينة، يعني لو كان أكبر منك شوي، ولو ،،،،

هي بدورها سألت عنه الكثيرين، وعرفت عنه الكثير، عرفت أنه رجل على مشارف التقاعد، وأنه متزوج من ثلاث نساء ،وعنده "عر" أولاد، وله أحفاد، وأن الإشاعات حوله كثيرة، منها أنه تزوج عرفيا أكثر من مرة، ومنها أنه على استعداد لإقامة كل أشكال العلاقات مع البنات، وأنه يراود الطالبة عن نفسها مقابل أن تنجح أو ترسب في مادته ""

أدركت إنها عمليا في ورطة، أو أنها تسير معه في حقل ألغام ،وهي العنيدة والمشاكسة، قبلت التحدي، ربما لأنها بحاجة لكل قرش تأخذه منه حلالا مقابل ما تطبعه له من أوراق، حتى لو كانت بلا قيمة أو فائدة، أو أنها مجرد مبرر للقائه بها، المهم أنه حينيحاول أن يجتاز الخط الأحمر، سيرى حينها عينها الحمراء .

12

على قدر ما رؤية خير البحر تثلج صدر السيدة صبحية، إلا أن رؤية زوجها عائدا بالكثير منها، بعد أن يكون قد أمضى معظم اليوم في حسبة السمك، دون أن يبيع كل ما لديه، تصيبها بالكثير من الإحباط، لكنها لا تغلب على أي حال، وقبل أن تنام، تشمر عن ساعديها، وتقوم بتنظيف ما تود أن تحتفظ به من السمك ،حيث تقوم "بتفسيخ" بعضه، حيث تغمره بالملح، لتصنع منه "الفسيخ" الذي يعشقه أهل غزة، خاصة في عيد الفطر، وتقوم بفرم بعضه خاصة السردين صغير الحجم، لتعمل منها "كفتة"، وبالطبع تعد أفضله، خاصة الدنيس لوجبة العشاء، أما ما يزيد من بوري وبلطي، فتعمل معه وفق نظرية "أجره ولا هجره"، فتدفع به للجيران، حيث اعتادت أن تمنح الجيران حتى سابع جار ،بالتتابع كل يوم ما يزيد لديها من سمك .

أما نبيل الذي أمضى حياته بين البيت والمدرسة ثم الجامعة ،فقد كان العمل مع سيارة الأجرة مناسبة له ليعرف تفاصيل الحياة والناس، فهو يتنقل بين الأماكن،

كذلك يرافقه في رحلاته الدءوبة كل أصناف البشر، ورغم أن الصمت عادة ما يخيم علىمن هم بداخل السيارة، إلا أن تشغيل مسجلتها عادة ما يثير ردودفعل متباينة بين الركاب، فهو إن فتحها على أغاني حديثة أو حتى قديمة، وكان من بين الركاب رجل متدين أو حتى امرأة منقبة، فإما أن يصمت أو تصمت على مضض، وإما أن يوجه كلامه أو توجه كلامها له موبخا أو موبخة بالقول: يا أخي خلي الله يطلع علينا ،ايش هالمسخرة اللي أنت عمالك تسمعنا إياها، يا بتسكرها يا بتحط أفضل الكلام، كلام الله . أما إن فتحها على تسجيل لأحد الدعاة، وكانت معه الطالبات، أو جمع من الشباب، فإما أن يصمتوا أيضا أو أن يحتجوا قائلين: هو إحنا ناقصين، في البيت والجامع والمدرسة والجامعة والشغل، تقول إنه إحنا عايشين بقبر مش بالحياة الدنيا. أما إن كان الركاب خليطا من بين هؤلاء وهؤلاء، فحينها قد تقع الواقعة، حيث يمكن أن يحدث الجدل بين الطرفين، ولا يهدأ حتى لو قام بإغلاق المسجلة، وأحيانا يهدأون بعد لأي، بعد أن يكرر عليهم القول: يا جماعة صلوا على النبي،

طبيعي الناس ما تكون على مسطرة وحدة، تتنوع الأذواق والأفكار والمعتقدات،،، ولكن حتى هذه الكلمات تجد من يحتج عليها، ويمكن في أحيان قليلة، أن يحدث عراك .

المهم أنه بات يعود مرهقا وفي وقت متأخر نسبيا، وقلّ حديثه مع أمه، ومع أبيه، وفي يوم من الأيام، وقبل أن ينام، وكان بيدهالموبايل، ففتحه على رقم فدوى، وفكر قليلا، ثم كتب لها: مساءالخير، نمت ولا بعدك صاحية؟ جاءه الرد سريعا، صاحية وأنت ليش بعدك سهران؟ بافكر أولا في إنه بكرة الجمعة وما راح أشوفك، وثانيا، بدي أسألك عن جوابك.

-بخصوص؟

- ايش؟ لحقنا ننسى؟ ايمتى تحبي أعرفك على أمي؟

- ما عندي مشكلة، من بكرة فيك تعرفني عليها .

- تمام، طيب تحبي أجي لعندك بكرة وآخدك لأمي؟

- معقول أنا اللي اجي لعندكو لأتعرف عليها؟ مش الواجب إنه هي تيجي تتعرف علينا؟

- اها بس هيك بتصير جية أمي معناها اجت تخطبك؟

- وايش فيها؟ بس هيك لازم يكون أبوي موجود؟ وما بينفع لأنه ما عندي أم.

- شفتي هيك القصة صارت صعبة، طيب خليني أنا احكي لأمي بالأول، وبنشوف ايش المناسب.

13

لأنه شاب ومعروف أبوه بأخلاقه الحميدة، ولأنه مهذب وسمحوحتى وسيم، فإن الركاب يرتاحون للمهندس نبيل، حتى وبعضهملا يعرف بأنه مهندس، لذا فإنهم لا يترددون في "الفضفضة" له ،مجرد أن يصعدوا لسيارته، وهكذا فقد صارت سيارة نبيل، كما لو كانت "صندوق العجب" الذي يحتوي على قصص وتفاصيل الناس في قطاع غزة، في هذه

الفترة الأصعب التي يمر بها، رغم أنه قد اعتاد على الحياة الصعبة، خاصة منذ عام 1948.

تصعد معه امرأة أربعينية، يملأها الغضب واليأس، ومعها فتاة عشرينية أجمل من القمر، وما أن تصعد وتغلق باب السيارة، حتى تطلب منه أن يستعجل قليلا، فهما في عجلة من أمرهما، يرد قائلا: العجلة من الشيطان يا أمي، بعدين إحنا لسة ما كملنا حمولة السيارة من الركاب، ترد عليه بالقول: – ما هو الشيطان معشش في شوارعنا وبلدنا، في كل حارة وبيت، حسبي الله ونعم الوكيل فيهم، والله يا بني ما باليد حيلة، وألا كان اخدناك سكارسة، منهم لله، اللي كانوا السبب .

يدفعه الفضول لسؤالها عما بها، فيقول: خير يا أمي، مالك كفى الله الشر؟

ترد قائلة، فيما الفتاة لا تنبس ببنت شفة:

بدنا نلحق المحكمة يا بني، لأنه لو أتأخرنا ما بيصدقوا وبيأجلوا القضية

- أها محكمة وقضية، قضية ايش؟

- قضية طلاق بعيد عنك.

ظن أنها هي المستهدفة بقضية الطلاق، فقال:

- معقول بعد عشرة العمر يعملها، أكيد زاغت عينه عوحدة ثانية، واشترطت عليه يطلقك.

ردت على الفور: لا مش أنا يا بني، بنتي هذه الصبية الحلوة ،لسة ما كملتش سنة، قضتها حردانة ببيت أهلها، والأفندي لفى له على موظفة وتجوزها، وهيك حطنا تحت الأمر الواقع، لا هو راضي يردها، ومخليها معلقة، لا هي مجوزة ولا مطلقة، رفعنا قضية نفقة، وهات يا محكمة حبالها طويلة.

سرق نظرة خاطفة للفتاة، كانت في غاية الجمال، بعيون واسعة ورموش طويلة، وقوام رشيق، بيضاء البشرة، دقيقة الملامح، فكر لو أنه لم يكن مرتبطا بفدوى، لفكر بها، وما أن امتلأت السيارة بالركاب حتى تحرك بسرعة، وكان من حسن حظ المرأة وابنتها أن الركاب قد نزلوا قبل أن تصل

هي لغايتها، حينها تطوع بإيصالهما لباب المحكمة، ثم قال للمرأة:

- إن شاء الله موقفة يا أمي، وأي حاجة اقدر عليها أنا تحت أمرك، وهذا رقم تلفوني.

سارعت هي على الفور بمخاطبة ابنتها قائلة: أعط الأستاذ رقمنا ياأمة .

14

لاحظ نبيل بأن أباه لا يقوم ببيع كل ما يصطاده من سمك في الحسبة، كما أن البيع في الحسبة، يعتبر غير مجدي كثيرا، لأن لابد من دفع مقابل الأرضية، كذلك عرض البضاعة وانتظار الزبائن، ففكر في طريقة أفضل، وكان أن قام بكتابة قائمة بكل المطاعم في المدينة، خاصة مطاعم الأسماك، وبدأ يتصل بها تباعا، عارضا عليها أن يبيعها ما يصطاد أبوه من السمك مباشرة ،على أن تختار ما تريده كل مرة، وهكذا اتصل على مطاعم أبو حصيرة وفش لاند والسوري والدولفين والسلام، وبذلك فتح باب رزق لأبيه، ما كان قد خطر على بال الرجل المسن .

كان أبو نبيل البشوش يقضي معظم وقته مع رفاق عمره من الصيادين، وهو قد عاش على شاطيء البحر أكثر مما عاش في البيت، وكان يرى في نفسه أنه صديق البحر وصديق السمك ،أكثر منه صيادها، حين يمكث في المركب وينشر شباكه ينتظر أن تعلق الأسماك بها، كان يتحدث معها، ويحكي لها القصص والحكايا، ولهذا ما كان يمر كثير وقت، حتى تجدها وقد اقتربت منه، تستمع إليه بشغف وحب، كما لو كانت فتيات يقعن في شباك العاشق المحب، وكان حين يقوم بإفراغ الشبك من السمك في المركب، وتتقافز الأسماك وهي تودع الحياة، يلاعبها أو يراقصها رقصة الموت الأخيرة، وكان يظن بأن من يأكل السمك ،تختلط أو تتوزع لحومها في جسده، فيأخذ منها صفاتها، لكنه هو نفسه، لم يكن يحب أكلها كثيرا، كما أنه لم يكن يطيق أن يراها في حوض الزينة، وكان يقول جمال السمك أن تراه وأن تلاعبه وهو في البحر، يسرح ويمرح على كيفه، ولو كان الود وده، أو لو كان الأمر بيده، لترك هذه المهنة، التي من خلالها تعرف على الأسماك، ورأى جمالها

الأخاذ والحياة تدب فيها، لكنه كان ينتظر أن يتخرج ابنه الوحيد من الجامعة فيتوظف ويريحه من عناء صيد السمك وركوب البحر.

وكان يكثر من التأمل وهو على الشاطيء، يدير ظهره للشرق ،ويظل ينظر باتجاه الغرب، ويفكر، ماذا لو كانت لديه سفينة بدلا من المركب، وركب البحر وابتعد عن هذا الحاجز المغلق، لربما وصل قبرص أو اليونان أو ايطاليا، بل لكان من السهل بالطبع الوصول إلى بورسعيد والعريش وحتى الإسكندرية، ألم يكن البحر بحدوده المفتوحة سببا في تداخل الحضارات القديمة وانفتاح البشر بعضها على بعض؟ ألم تكن الصحراء والجبال موانع جعلت من القبائل والشعوب داخلها كما لو أنها عاشت في كهوف مغلقة، معزولة عن الآخرين، في حين أن الشعوب التي كانت تعيش على السواحل، كانت تركب البحر وتصل إلى أطراف الدنيا؟

لماذا قطاع غزة إذا محاصر وهو يتكيء على شاطيء البحر ،هذا البحر الذي يمكن عبره أن يتصل القطاع بكل الدنيا، ظنّ بأنه لو كان أصغر عمرا، ولو كان عازبا ودون مسؤولية عن أسرة، لربما غامر وامتطى مركبه وسار غربا إلى أن يصل ليابسة أخرى. غرق أبو نبيل كثيرا في خياله، لكن

سرعان ما أخرجه إطلاق نار بعيد في البحر، من حالته وأعاده للواقع، حيث على ما يبدو أن الإسرائيليين قد لاحظوا بأن أحدى مراكب الصيادين أو غيرها قد تجاوزت الخط المسموح به، فبدأت تطلق قريبا منها نيرانها تحذيرا لها من الابتعاد أكثر، عرف حين ذلك بأن المغامرة التي خطرت بباله للتو مستحيلة وغير ممكنة التحقق ولا حتى في الخيال .

15

سألها هذه المرة عن أبيها، وماذا يعمل، استغربت ومازحته قائلة:

-ايش يا دكتور بدك تناسبنا وألا

ايش؟رد على الفور قائلا:

- والله يا ريت، أنا بتمنى.

قطعت عليه الطريق حتى لا يجدها فرصة للتمادي في رغبته فيها بأنسب شكل بالنسبة له، بمعاودة سؤاله لإحراجه:

- أها بس في مين يا حسرة، أبويا لا عنده أخت أرملة ولا مطلقة ليجوزها لك، ولا هو معه مصاري يناسبك في أخت لك أرملة ولا مطلقة.

دهش من ذكائها، وأحبط في الوقت نفسه، لكنه لم يستسلم ،فقال:

-حدا جاب سيرة الأرام ل والمطلقات، أنت وين راح تفكيرك، ليش هربت من الجواب؟

ردت بالقول: النسب بينك وبين ابوي يا دكتور ما بيكون غير هيك، وألا كيف بده يكون يعني، عموما هيني جاوبتك، وقلت لك أبوي أرمل وما تجوز بعد ما ماتت أمي، عشان ما بده يجيب لي مرة أبو، وعشان يربيني هو، وما بيشتغل اشي محدد، ع باب الله، خالي بيساعدني، ومستورة والحمد لله.

أجابها: كتير منيح، عموما أنا حاب أتعرف عليه، وما بيكون إلا الخير، بافكر أدبر له شغل بصراحة.

-يخلف عليك يا دكتور، عموما بحكي له .

16

اصبح الدفش محل ثقة عند قيادة الحركة الميدانية، وقد صار هو ضابط الاتصال بين قادة مجموعات البلالين الحارقة، ولم يعد يتواجد كثيرا في البيت، بل إنه صار ينام خارجه في كثير من الأحيان، يكتفي خلال لياليها بالاتصال بابنته فيوصيها بأن تغلق باب الدار جيدا، ثم تغلق باب غرفتها أيضا، ولم يكتف بهذا، بل جاءها يوما بمسدس، وعلمها كيف تستخدمه، وطلب منها أن تضعه تحت مخدتها حين تنام، ورغم ذلك ظل قلقا عليها، وبدأ يفكر في ما يمكن أن يفعله ليطمئن عليها تماما، فيما هو يتفرغ تماما ويوظف كل جهده ووقته وطاقته لخدمة حركته التي شعر معها لأول مرة في حياته بأنه شيء مهم، أو أنه على الأقل لم يعد ذلك الرجل "العواطلي"، غير المسئول، ولا حتى القادر على تأمين مستقبل محترم لأبنته الوحيدة .

لكن ماذا يمكن أن يفعل غير أو أكثر مما فعل؟ فكر في أن يطلب من أميره أن يوصي الأخوات بالتعرف على ابنته، ومن ثم ضمها لهن، حتى تخدم بدورها الحركة، لكنه فضل أن يخبرها بما يفكر فيه، خشية أن لا تستجيب للأخوات فتحرجه، وتهدم كل ما بناه خلال الأشهر الماضية، فهو يعرفها جيدا، لا تؤدي طقوس الولاء والطاعة بسهولة، فحتى هو تجادله في كل أمر ،فما بالنا مع أخوات محتشمات، سيطلبن منها أن تواظب على الصلاة في مواعيدها، وأن لا تستخدم ولا أي نوع من الماكياج ،ولا حتى كحلة العين، ثم أن لا تكتفي بالمنديل على الرأس، بل لابد من النقاب، وأن لا تتحدث مع أي رجل غريب، ولا حتى زميل في الجامعة ولا مع الدكتور نفسه، وأن لا توافق على أن تقابل الأستاذ في خلوة، بل فقط في المحاضرة حيث كل الطلاب موجودون، وأن لا تستمع لأي أغان أو موسيقى.

تمنى لو أنها متزوجة، وفكر في أن يوافق على من يدق بابه طالبا يدها، لكن المشكلة تكمن في أن الناس تعرف أنها طالبة بالجامعة، ولذلك فإنهم يترددون في التقدم لخطبتها، على أساس إنه أنا بدي إياها تخلص الجامعة،

وبعدين تشتغل ،وبعد ما تشتغل ممكن أوافق إنها تتزوج، أو إنه الناس أصلا يفضلون البنت الموظفة عشان تشيل مع جوزها حمل البيت ومصروفه، وألّا حتى تشيله هو شخصيا، لذا فإنه قد استبعد أن يدق بابه أحد قريبا، ليطلب الزواج من ابنته . فجأة وبينما فكر الرجل يأخذه ويعود به، وإذا بجرس هاتفه يرن، تناوله، نظر في الاسم، وقال:

بنت حلال، كنت بأفكر فيك وفي مستقبلك يابا.

ردت بدلال: طبعا بنت حلال، وألا لمين بدي أطلع، أبوي زلمة طيب، وأمي كانت مستورة وبنت ناس. بس أنت كنت بتفكر فيّ كيف يابا؟

- والله قلقان عليك يا بنتي، كنت طول اليوم حواليك، اليوم صرت يا دوب أنام ليلة بالدار وليلة برة البيت، وأنت لحالك ،والعرض بنحماش بالسيف.

قاطعته قائلة: ايش بابا بتفكر تجوزني؟

- رد قائلا: أولا ما حدا خطبك، اتنين أنت لسة بالجامعة، ثلاثة حتى لو خطبك حدا مني، ولو أنا وافقت، المهم أنت توافقي.

قالت:

- طيب يابا ما سألتني ليش أنا متصلة عليكرد

- أه صحيح، ليش؟أجابت:

-أستاذي بالجامعة سألني عنك، بده يتعرف عليك سأل باستغراب:

- يتعرف علي أنا، ما حكى لك ليش؟

ردت

- لأ ما حكى لي قال في سره:

- يمكن هذا جاي خطّاب، وشكلها عارفه وموافقة، هيك بتكون اجت من الله.

رفع صوته مخاطبها:

- طيب ما عندي مشكلة باتعرف عليه.

قالت:

- أنا أعطيته رقمك، وهو راح يتصل فيك.

17

فجأة وفي منتصف الطريق، توقفت السيارة، ولم يكن قد نفذ وقودها، أضطر إلى إنزال الركاب وإعادة ما أخذه من أجرة منهم لهم، ثم أتصل بصديق له، أخبره الصديق بأنه في مشوار، ولن يكون عنده خلال أقل من ساعة، ما باليد حيلة، عليه أن ينتظر صديقه أو أي أحد يمكنه أن يجر السيارة لأقرب كهربائي أو ميكانيكي، لحظات وكانت عربة كارو تقترب منه، فرفع يده يطلب من صاحبها أن يتوقف، وفعلا ما أن وصل إليه حتى توقفت العربة. - ايش ياخو شكلها العربية قطعتك هان؟

- اه صحيح
- وبدك اسحبها لك للميكانيكي وألا للكهربائي؟
- أقرب واحد، أصلا أنا مش عارف مشكلتها ميكانيك وألا كهربا
- طيب ولا يهمك، بوصلك بخمسين شيكل

- خمسين، مش كتير يا قرابة؟

- لا كتير ولا اشي، بتطلعهم بساعة شغل، أحسن ما تتعطل هالساعة.

- طيب ماشي توكل ع الله.

قام الرجل من فوره بإخراج حبل من مؤخرة عربته، وقام بربط مقدمة السيارة بمؤخرة العربة، وطلب من نبيل أن يجلس وراء المقود ليمنع السيارة من الهرب منه يمينا أو يسارا، ومن ثم ضرب ظهر الحمار بالعصا، وتابعا السير إلى اقرب ميكانيكي أو كهربائي سيارات؟

18

كانت المواجهة على جانبي السياج حامية الوطيس، وكان الأخ أبو حفص، كما صار يلقب بين المجاهدين، مثل المكوك، تراه في كل مكان، يرشق العدو بالمقلاع، ثم يندس بين مطلقي البالونات الحارقة، فيرسل بعضها، ثم تراه يركض تجاه من يسقط شهيدا أو جريحا، فيحمله ويركض به نحو المسعفين، ظل هكذا طول اليوم ،إلى أن أنهكه التعب، فجلس قليلا ليرتاح، وظل يتنقل بنظره في كل

الاتجاهات، حتى إذا ما رأى شيئا يستوجب التدخل، استعان بالتلفون، فأتصل على واحد من الأخوة المعنيين بالأمر، وطلب منه أن يسارع لنجدة المجموعة المحددة، التي رآها تواجه تركيزا من العدو، كان أبو حفص حقا قائد أركان الميدان، لكنه نسي حتى أن يأكل، وقد كان الجو حارا، فكان يتناول الماء وحسب، وفجأة وإذا بأخت منقبة تقترب منه، وتناوله ساندويشا، وتقول:

-خود أخي أبو حفص، من صبحية ربنا وأنت على لحم بطنك.

لم يفكر في شيء، وتناول الساندويش في لحظة.

ضحكت، وقد رأت جوعه، فما كان منها إلا أن دست يدها في حقيبة كانت تحملها على كتفها، وناولته ساندويشا آخر.

أبطأ هذه المرة في أكله، وتذكر أن الساندويش الأول كانمحشوا بالفلافل، أما هذا فمحشو بالبيض .

شرب الماء، وشعر بأنه قد أسكت قرقعة بطنه، سارع إلى سؤالها:

- أنت من وين بتعرفيني، وكيف عرفت إني من الصبح ما أكلت اشي.

ضحكت وقالت: ارتاح لك شوي، حتى بعد هيك ترجع لشغلك، خليني أنا أشوف شغلي.

19

إن كان الناس قد أطلقوا عليه لقب البشوش نظرا لنقاء سريرته ،فإن من سمّاه سعيد، كان قد تمنى له السعادة، وهو إن لم يكن كذلك تماما، إلا أنه يبدو دائما بشوشا يسعد كل من يراه، بل هو إن رأى حدا متبرما أو متنكدا، مازحه قائلا:

- يا شيخ فكها عاد، تلت التلاتة واحد، والله ما في اشي مستاهل، الدنيا رايحة.

وهذا ما فعله حين رأى زميله في ركوب البحر الحاج سمير مكشرا، فسارع إلى سؤاله:

- مالك ضاربها بوز يا رجل؟ ليكون عشان الحال واقف ،ومش عارفين نلقط رزقنا، مع إنه الله موفر إلنا إياه، والبحر خيره كتير، بس أخوات الشليتة، كل ما قربنا من المي الغويطة اللي فيها السمك طوس، بيصيروا يطخوا علينا، لا تكشر ولا عبالك ،الرزق على الله.

ثم ينادي على النادل:

- عمي يا فؤاد اعمل لك أحسن كباية شاي لعمك الحاج سمير أبو العبد البركة، وألا نخيلها قهوة لتصحصح؟

يرد بتثاقل:

- لا خليها شاي

يتابع ضاحكا: ايوة هيك، أخيرا نطقت؟

ثم يتابع : تعال جر كرسيك وقرب لي، بدكاش تسد غلبك يا رجل؟

يبستم أبو العبد قليلا ويقول: أسد غلبي، مين اللي انغلب أول امبارح؟ أنا وألا أنت؟

يضحك أبو نبيل من أعماقه قائلا: المهم انك فكيتها، أقول لك سر يا صاحبي؟

- قول يا أبو نبيل، سرك في بير

- لا مش لهالدرجة اللي بيسمعك بيفكر إنه سر بخوف وألاخطير، المهم تعرف إني بحب أنام مغلوب ولا أنام غالب؟يتفاجأ الحاج سمير مما يقول صاحبه، ويسأله مستغربا:

- معقول وليش طيب، ليكون عشان تثبت لحالك انك عربي أصيل !

يرد بالقول:

- لا لأنه أنا مش فارقة معي، بس تعرف في ناس ما تحب تنغلب وبتنسى إنه القصة كلها لعب في لعب وبنلعب عشان نتسلى، ولما تنغلب ما بتعرف تنام، أنا ما بحب حدا يزعل بسببي، وأنا لما انغلب بعد دقيقة ومجرد أروح وأحط راسي ع المخدة بنسى كل اشي.

20

بينما كانت تقوم بإطعام دجاجاتها، نادت عليها جارتها أم حسام، ودعتها لشرب القهوة معها، فردت عليها بالقول:

-ربع ساعة، يا دوب، أنت تحطي المي ع النار وأكون أجيتك.

سارعت إلى ارتداء ثوبها ووضعت على رأسها الشال ولفته حتى غطى شعرها، ثم دخلت المطبخ تبحث عن أي شيء يمكنها أن تأخذه بيدها لجارتها، فهي لم تزرأي أحد من قبل، وإيدها فاضية كما يقولون، وجدت حبتي تفاح، أخذتهما وخرجت، وما هي إلالحظة وكانت عند جارتها التي احتضنتها وكأنها كانت قد غابتعنها شهرا، وليس فقط يومين، ثم جلست وكان جهاز التلفزيون مفتوحا على مسلسل عربي، أما جارتها فذهبت للمطبخ ومن ثم عادت بالقهوة، حيث جلست الجارتان تشربانها وهما تتحدثان ،فتخبر إحداهما الأخرى بما سمعته من أخبار خلال اليومين الماضيين، وهما ترتشفان القهوة، وما أن انتهيتا، حتى قامت أم نبيل بقلب فنجانها على فتحته، توطئة لقيام جارتها أم حسام بالخطوة التالية، التي لا تخلو منها زيارة،

بل هي التي تبرر إقدام النساء هنا على شرب القهوة المغلية والإبقاء على رغوتها، وهي قراءة الفنجان، للوقوف على ما في الغيب من مفاجآت وأسرار .

- أسمعي ياختي، إن شاء الله خير جاي لك في الطريق، هيو زلمة طويل عريض داخل عليك وفي ايده اشي، تقولي جزرة ،سمكة، موزة، الله أعلم.

ضحكت السيدة صبحية، وقالت:

- مهو كل يوم أبو نبيل بيدخل علي وبايده السمك.

أشارت لها جارتها قائلة:

- السمكة بالفنجان مش ضروري سمكة، هي رزقة، شهادة ،مصاري، ورقة يانصيب، أنا ايش دراني، سيبك من السمكة هلقيت وشوفي معي، هي كمان حمامة في طرف الفنجان منفوق، على اليسار يعني جاية من الشمال، مين عارف، المهمقولي إن شاء الله خير.

ثم تابعت: اسمعي في راح يصير عندكو اشي، شايفة لمة حواليك، هيك رافعة ايديك بتلوحي، بترقصي، بتتقاتلي، أنت في فرح وألا في طوشة، اشي زي هيك .

المهم في ناس كتير داخلة عليكو، وفي مناسبة، ليكون في الكو حدا برة مسافر وجاي، وألا حدا راح يتجوز عندكو، اها ليكون خلص نويتو للمهندس على بنت الحلال.

انفرجت أسارير السيدة صبحية، وقالت:

- من تمك لباب السما، هو احنا ناويين، بس هو عاد يوافق ،شوفي لي مين هي، بتقدري تعرفي لي مين هي العروسة؟قالت ام حسام:

- مش لهالدرجة، استني أحاول أشوف.

ثم ركزت عينيها على من رأتهم حشدا من الناس في بيت أم نبيل، وقالت:

- أظن هاي هي العروسة، شكلها بنت حلوة، بيضة وعيونها وساع، ومش كتير بعيدة عنكو، تقولي قريبتك وألا هي جارتكو .تدخلت أم نبيل بالقول: إن شاء الله هي قريبتنا، بس ما تكونجارتنا، ومين يعني جارتنا، هو في غيرك يا أم حسام، والله يا ريتكان عندك بنت مجوزة، كان حطينا زيتنا في دقيقنا وتناسبنا .

21

كان التحضير لأحياء ذكرى النكبة يجري على قدم وساق ،حين اتصل به الدكتور محمد، لذا فقد قام بفتح "السبيكر" ليسمع من كانوا معه، بأن الدكتور المعروف يتصل به شخصيا، ويطلب منه تحديد موعد ليقابله في أمر مهم، ولمزيد من إظهار العنجهية التي بدأت تظهر على سلوك الرجل، رد عليه بالقول:

- أسمع يا دكتور، أنا حاليا مشغول بمهمة وطنية، وأنت عارف قديش حمل المسؤولية ثقيل، مجرد ما تنتهي الفاعلية اللي عمالنا بنحضر الها، أنا باتصل فيك، وبعزمك تيجي عندي ،أو بنحدد المكان والزمان اللي يناسبك ويناسبني، اتفقنا؟

- اتفقنا.

كانت مهمته التنسيق بين مجموعات المحافظات الخمس ،التي تقوم بإعداد كل ما يلزم لإحياء ذلك اليوم، في إطاره الخارجي، أي إعداد الطائرات الورقية التي كانت أكثر

من 400 طائرة، بعدد القرى الفلسطينية التي دمرت في العام 1948، مكتوب عليها مساحة القرية وحدودها، كذلك أسماء العائلاتالتي كانت تسكنها، كذلك تنظيم الشباب الذين سيطلقون تلكالطائرات، وتنظيم اصطفاف الأطفال والنساء والرجال على طول الحدود الشرقية والشمالية، حيث كان قد اتخذ قرار بأن يتم حشد صف بشري على امتداد حدود قطاع غزة مع دولة الاحتلال الأسرائيلي، ملوحين بالأعلام والطائرات الورقية، ومشهرين المفاتيح وأوراق الطابو، كذلك الشعارات والخرائط التي ترسم حدود القرى وتفاصيلها، تأكيدا على أنها ما زالت في الذاكرة ،يتم حفظها عن ظهر قلب، جيلا بعد جيل.

شعر أبو حفص بأن نجاح يوم إحياء النكبة وخروجه في أحلى حلة وأروع شكل، سيعزز مكانته في الحركة، هذا رغم أن دوره هو التنسيق بين مجموعات الاحتفاء الخمس وفي الإطار الخارجي، أي الذي ليس له علاقة بالسياسة، فلا دخل له ولا علاقة له بمن سيلقي الخطب والكلمات، ولا بمكان جلوس الوفود والقيادات، ولا بالطبع بأي قدر له

علاقة بالتأمين الأمني للفاعلية، وبالطبع بنقطتها المركزية المتمثلة بمنصة ظهور القادة .

22

لم ينته الأمر عند أبي حفص، بانفضاض الجمهور، ولا بمغادرة القادة الذين أشادوا بالحشود الجماهيرية وبمستوى التنظيم وتنوع الفاعليات، ولا بما سمعه من إطراء بأدائه من قبل أمراء الحركة، الذين بات كثير منهم يرى فيه واحدا من القادة الميدانيين الجماهيريين، فيما بات البعض يرى فيه منافسا، فيكن له الغيرة والحسد، بل إنه أخذ يفكر في أمر الطائرات المسيرة صغيرة الحجم، والتي استبدلها العدو بما كان يعتمد عليه في التجسس والمراقبة الميدانية من طائرات تعرف باسم "الزنانة"، فالمسّيرات كثيرة العدد، ضئيلة الحجم، يظنها من لا يعرفها كما لو كانت طيرا لو رآها أول مرة، وهي خطرة، فهي مزودة بكاميرا تصور كل ما تراه وبدقة عالية، وهي لا تحدث صوتا صاخبا، أي يمكنها أن تنسل كلص .

ظل يفكر في ضرورة التوصل لحل لهذه المشكلة، التي غطت سماء الحدود يوم إحياء ذكرى النكبة، وهذا يعني بأنه بات لدى العدو أرشيف من الصور، لكل من شارك في ذلك اليوم، ولولا أن عناصر وحدة البالونات الحارقة، يضعون غطاء الوجه، لكان الأمر خطيرا جدا عليهم، فإسرائيل، لا تتورع عن الأقدام علىاغتيال عناصر الوحدات القتالية، في حين تكتفي بجمع كل مايمكن من معلومات عن كل من يشارك في أي تحرك سلمي ،لتضغط عليه حين يسافر أو حين يحتاج انجاز أية مصلحة تحتاج لموافقة العدو .

لم يعد يحتمل أبو حفص أن يتم اصطياد إخوته من مجاهدي وحدة البالونات، لذا صمم على أن يجد حلا لبلاء المسيرات من عصافير جو العدو، وظل هكذا إلى أن فتح الله عليه، واهتدى إلى سلاح رادع لمسيّرات العدو .

23

مع توالي غياب أبيها عن البيت، بدأت فدوى تشعر بالوحدة ،ومع وحدة حالها فيما يخص الذهاب للجامعة والعودة منها، مع زميلاتها، شيماء، لينا، سوزان، فدوى فضل، فقد صارت الفتيات الخمس صديقات تقريبا، ولأن فدوى إبراهيم تسكن بالقرب من بيت السائق، فكانت تصل الأخيرة في رحلة العودة من الجامعة، ولأنها أيضا تسكن وحدها تقريبا، فقد بدأت الفتيات في اللقاء عندها بالمناسبات، وحين يشعرن بالملل، وحتى أيام الامتحانات، وكان من السهل عليهن، أن تخبر كل واحدة منهن أهلها بأنها ستتأخر، أو أنها عند صديقتها، ويلتقين معا، بعد عودتهن من الجامعة، حيث يبقين بالسيارة إلى آخر محطاتها، أوفي أيام العطل، وفي كل الأحوال ليس بيت فدوى إبراهيم الدفشببعيد عن بيوتهن، ويمكنهن أن يذهبن إليه سيرا على الأقدام.

ولأن مصائب قوم عند قوم فوائد، كما يقولون، فقد كان انشغال الدفش بعمله وانتمائه الجديد، فرصة لتجد الفتيات الخمس مكانا يقضين فيه بعض الوقت معا، يتحدثن، ويضحكن، وأحيانا يقمن بفتح اليوتيوب على أغنيات حديثة فيرقصن، وتحكي كل واحدة منهن عما

يجول بخاطرها، وهكذا مع الوقت بتن صديقات جدا ،يبحن بأسرارهن لبعضهن بعضا، فيما وجدت فدوى صحبة أخرجتها من وحدتها، بل صحبة كانت تتوق لها، وهي الوحيدة ،بلا أخوة ولا أخوات، ثم بلا أم، وها هي قد صارت بلا أب تقريبا .بعد عدة لقاءات في بيت فدوى، تعودت المجموعة على هذا التقليد، بحيث بات لا يمكنهن أن يمضين أسبوعا دون أن يلتقين، وفي يوم من الأيام، وكن على بعد أيام قليلة من استحقاق دفع رسوم الفصل الدراسي، ومعظمهن أحوالهن المالية صعبة جدا، اقترحت عليهن سوزان، أن يفكرن في مشروع يتشاركن فيه، يمكنه أن يدخل عليهن بعض النقود، اتفقوا جميعا على أن الفكرة جيدة، لكن لا تحل المشكلة حيث هن بحاجة للنقودخلال أيام، حينها اقترحت لينا أن يشاركن بعض زملائهن فيجمعية ويخترن بعض الزملاء ممن أحوالهم المالية جيدة، بحيثيأخذوا جمعياتهم متأخرين، وافقوا أيضا، ولكن أيضا هذه الفكرةلا تحل المشكلة، اسقط بأيديهن، وقالوا: هذه المرة يدبرها أهلنا كما كل مرة، لكن

نحن نبدأ العمل على مشروعنا الخاص، بحيث يمكنه أن يساعدنا في دفع ولو جزء من قسط الفصل التالي .

وكان بيت فدوى مكانا تتحرر فيه الفتيات من قيودهن، التي تلازمهن في بيوتهن وفي الجامعة، وتحرمهن من أبسط ما تقوم به الفتيات في مثل عمرهن في كل بلاد الدنيا، فكن مجرد أن يصلن إلى البيت الأزرق، كما سموه، في إشارة إلى أنه صار بالنسبة إليهن بيت الأحلام، أو أنه مثل العالم الالكتروني الافتراضي ،العالم الأزرق، حتى يخلعن عباءاتهن، كذلك يلقين بالمناديل التي تغطي رؤوسهن، ولم تكن منهن سوى شيماء منقبة، وكانت مثلهن ترتدي تحت الجلباب بنطلون جينز وتي شيرت، في أغلب الأحيان، ثم يشرعن الى وضع الماكياج، البودرة وأحمر الشفايف، وغيرهما، ثم يبدأن في أخذ الصور لهن معا، وكل واحدة منفردة، وهن مبسوطات يتضاحكن، وفي يوم من الأيام ،وكل واحدة منهن مشغولة في محادثة، تتصفح موبايلها، بعد أن قضين معظم الوقت معا، صاحت فيهن سوزان التي لقبوها بعدذلك بالفيلسوفة صاحبة الأفكار الدائمة:

- يا بنات ايش رايكو نعمل إلنا جروب على فيس بوك خاصفينا، وممكن كمان نعمل يوتيوب، ولو نجح وصار له مشتركينكتير بيدخل لنا مصاري.

صاحت شيماء بأعلى صوتها:

- مصاري؟ ما دام بيطلع مصاري، موافقين وهي المصاري بدها مشاورة؟

24

كانت السيارة بحاجة إلى صيانة عامة، فوجدها فرصة، أن طلب من كل من الميكانيكي والكهربائي، بأن يتفقد الأول الموتور فيستبدل كل قطعة انتهى عمرها الافتراضي، وأن يقوم بصيانة كاملة للموتور، كما طلب من الكهربائي أن يقوم بفحص كهرباء السيارة كاملا، البواجي والأضوية والسويتيش، وأن يستبدل كل ما هو تالف ،ثم قرر مع نفسه، أن يقوم بسمكرتها وإعادة طلائها بعد وقت، ثم في

مرحلة ثالثة، بإعادة تنجيد الفرش، وتركيب الإكسسوارات اللازمة ،حتى تليق بالعروس التي ستقلها من بيت أبيها إلى بيت أبيه.

أخبره الفنيان بأن عليه أن ينتظر أكثر من ساعتين حتى يفرغا من عملهما، فما كان منه إلا أن ذهب إلى أقرب كافتيرا، وجلسيشرب الشاي، ويتسلى بموبايله، ففتح صفحة الفيسبوك الخاصةبه، ثم لمعت في رأسه الفكرة، فكتب إسمها على باحث الصفحةفجاءته عدة صفحات تحمل الاسم نفسه، دقق في البيانات ،فأختار أكثر صفحة فيها بيانات تتطابق معها، ثم أرسل لها طلب الصداقة، وحتى لا ينتظر طويلا، أرسل تحية على الخاص، أتبعها برسالة نصية على الهاتف.

دقائق وكانت تقبل صداقته، ففتح صفحتها، وقرأ كل ما في البروفايل من بيانات، كانت قليلة على أي حال، أو أنه يعرفها كلها، ثم فتح ملف الصور، لعله يجد لها صورة خاصة، فلم يجد ،ولا حتى صورة جماعية أو عامة، فما كان منه إلا أن لجأ لخانة الحوار الخاص، وأرسل لها التحية.

ردت عليه بدورها، وسألته عن أحواله، فأجابها بأنه عالق مع سيارته في ورشة الميكانيك والكهرباء، شعر برغبة في أن تشاركه تفاصيله، وبدوره سألها عن أحوالها، فقالت إنها تقضي وقت فراغها مع صديقاتها رفيقات رحلتها من البيت للجامعة ،ثم سألها إن كانت جاهزة للقاء أمه، حين ذلك ضحكت ضحكة خفيفة، وقالت: ما في مشكلة، وقت ما تحب .

25

منذ أن توقفت مسيرات العودة، التي أنشغل بها إبراهيم الدفش مدة عام تقريبا، يعد خلاله البلالين الحارقة والطائرات الورقية ،كذلك إطارات الكاوتشوك، ثم كل ما يلزم معارك الإرباك الليلي ،لم يجد الدفش ما يفعله، لكن اتصالا من الشيخ أبي عمر، الذي كان يتفقد ميدان مسيرات العودة، فتح له باب العمل والرزق واسعا، التقاه في مقر الأمن الداخلي، وطلب منه أن يبدأ عمله بين الناس، وهو

الذي يعرف حارات مدينته وشوارعها، بل يعرف كل تفاصيل القطاع، حين كان يمشي كل يوم الساعات الطوال ،يجوبه من جنوبه إلى شماله، ومن غربه إلى شرقه.

بعد ذلك اللقاء، أخذ الشيخ أبو حفص يكتب كل ما يعرفه عن كل شخص يعرفه، بدأ من جيرانه، أهل حارته، ثم الحارات التي بجوار حارته، الصيادين، أصحاب الدكاكين، المدرسين ،الشباب، النساء، وبدأ يجلس على المقاهي، لا يكتفي بواحدة ،بل أخذ يتنقل فيما بين مقاهي المدينة، ويمر على الشاطيء، ثم أخذ يدخل المسجد، فيصلي ويختلط بالناس، ويقدم تقاريره للشيخ أبي عمر تباعا، حتى حظي بمكانة مهمة، وعُدَ أخا مجاهدا، ومنح رتبة عسكرية، وهكذا، أعاد هيكلة شخصيته بناءعلى وظيفته ومهمته الجديدة، فصار ما أن يسمع اثنين يتحدثانحتى ينصت لهما، ويقوم على الفور بتدوين ما قالا، ولاحقا صار يحسن استخدام الموبايل، الذي انتقل مع الوظيفة/المهمة ،من نوكيا القديم إلى سامسونج الذكي، فيقوم بتسجيل ما يقوله الآخرون .

بعد وقت تفتق ذهنه عن حاجته لأن يكتشف أمرا جللا، أو أحدا خطيرا، عبر ذلك الكشف يتقدم خطوة أخرى على

سلم الرتبة العسكرية، صار يفكر كثيرا، ويتأمل كثيرا، بقي هاجسه أن يكتشف مؤامرة على حكومة غزة تدبرها حكومة الضفة ،أو عميلا أو حتى شبكة عملاء تعمل لصالح العدو، من سقط الناس، الكفار الخونة.

ثم أخذ يفكر في سر اللون الأسود، وهو لون يحبه منذ زمن طويل، ففيه وقار وجدية، لكن لفت انتباهه أن المقاتلين من المجاهدين، يرتدونه بدلا من الكاكي العسكري المعتاد لدى الجيوش، العربية خاصة، وليس هو أيضا المموه كما هو زي الفدائيين الفلسطينيين، ها هم معظم المجاهدين من الحشد الشعبي إلى الجهاد الإسلامي، مرورا بحماس وداعش يكاد زيهم أن يكون واحدا، بل إن راية المجاهدين لونها أسود، ومكتوب فيها الشهادتان فقط . وكانت راية أبي مسلم الخراساني حين دخل قصور بني أميه، والراية السوداء كانت راية الرسول صلىالله عليه وسلم، وكان اسِمها العقاب .

أخذ يقرأ في كتب السيرة، وفتاوى الدعاة المحدثين، فهذا من جهة يزيد من إعجاب أمرائه به، ومن جهة ثانية، يثقل لسانه بما يؤهله ليكون الشيخ أبا حفص، وحتى يقبلك المجاهدون قائدا ،لابد أن يروك إماما وعالما أولا .

قرأ في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطل الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم ... ثم قال: فإذا رأيتموه فبايعوه، ولو حبوا على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي .

وقرأ أيضا أن رابع الخلفاء الراشدين الأمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه قال: إذا رأيتم الرايات السود فألزموا الأرض ،فلا تحركوا أيديكم ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم ضعفاء لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، هم أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثاق، يدعون إلى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى ،ونسبتهم القرى، وشعورهم مرخاة كشعور النساء، حتى يختلفوا فيما بينهم ثم يؤتي الله الحق من يشاء».

اهتز كيانه حين قرأ هذا الحديث، ومنذ تلك اللحظة، قررأن لا يرتدي سوى الأسود، وقام من توّه وعلّق على باب داره راية سوداء، ومن ثم توقف عند الاسم، وحيث أنه رأى أنه يولد من جديد، بل هو قد ولد لتوه، فقد أختار أن يسمي نفسه باسم المهدي أبو حفص، وأن ينسى منذ اللحظة أسم إبراهيم وبالأخص الدفش، ويا ويله بعد اليوم من يخاطبه بأبي فدوى.

- هي اللي ناقص انتسب لأسم مؤنث، حينها دار الجدل بداخله، ألم يكنى المهلهل بأبي ليلى؟ صحيح ورغم أنه كان فارسا عظيما، أعلى من قدر الثأر كقيمة، حيث لا بد من الحفاظ عليها هذه الأيام، إلا أنه كان جاهليا، وزير نساء، يعاشر النساء ويعاقر الخمر والعياذ بالله، ونحن لنا في رسول الله القدوة الحسنة، والرسول ورغم أنه قد أنجب 4 بنات، عشن حتى تزوجن وأنجبن، إلا أنه لم يكنى ولا بواحدة منهن، بل إن البعض كان يناديه بإسم ولده الأول القاسم، رغم أنه لم يعش طويلا ومات طفلا، ثم

أستقر رأيه على أن يطلق اسم "البيت الأسود"، على قصره حين يصير أميرا للمجاهدين .

26

- دوشيش

ثم ينادي : فؤاد هات لك نفس شيشة قص

وينظر إلى الصورة المعلقة أمامه على الجدار، يبتسم ويسأل صاحبه

- متذكر يا حاج سمير، في ذكرى استشهاد أبو عمار ،،،قاطعه أبو العبد بالقول: وهو في حدا بينسى هذاك اليوم؟ يا رجل، مشيناها من رفح لغزة، اللي ميتسموش قليلين الأصل كانوا حرّجوا على كل الباصات ما تتحركش هذاك اليوم، مشينا على رجلينا، من رفح للكتيبة في غزة، واحنا وصلنا هان واشتغل الطخ من هان، احمد ربك ظلت على كسر ايد، وما رحناش فيها متل اللي راحوا.

يتنهد ابو نبيل من أعماقه ويقول: الله يرحمك يا أبو عمار، من بعدك الكل بهدلنا.

فيكمل رفيقه قائلا: صرنا ملطشة للي بيسوى واللي بسواش.

يأخذ منه ابو نبيل حبل الكلام ويقول: الصبر يا صاحبي، كل اشي اله آخر.

27

على بعد أقل من مائة متر كان الجندي الأسرائيلي في برج المراقبة، يراقب عبر منظاره الليلي، حركة السكون، ويتذكر محاضرة الضابط، الذي كان يشرح له ولزملائه من جنود الموقع الحدودي، حالة العدو الذي يراقبونه، وكان قد جلب معه قفصا به عصافير، وحوضا به سمك، وقال: هم مثل هذه العصافير، في الوضع الطبيعي هي قادرة على الطيران، والتنقل من مكان لآخر تبحث عن رزقها، أو حتى من أجل أن تلهو، لكن حين تضعها في القفص، فإنها لن تموت حزنا، ولن تنتحر، بل ستظل تنتظر ،أن تضع لها الطعام والماء، وحين تجوع سترقزق، وستزعجك بحركتها،

وما دمت تقدم لها الماء والطعام، فإنها ستبقى مطيعة لك، بل ربما تحبك، أما لو فتحت لها الباب فقد تطير هاربة، راغبة في العودة لأعشاشها، أما لو فتحت لها الباب بعد وقت، وبعد أن تكون قد اعتادت على القفص، وعلى الحركة المحدودة، فإنك حين تفتح لها باب القفص لن تهرب .

والسمك كذلك في البحر يغوص بعيدا، لكنه في الحوض يظل يسبح حتى يصل الجدار أو السطح، فيعود مجددا، وهكذا يظل يدور في المربع المتاح له ظانا أنه يسير مسافات طويلة ،تماما مثل من يسير على جهاز السير المتحرك "التريدميل" في الجيم، يظل يمشي وهو مكانه لكنه يجهد من المشي ويتعرق فيظن بأنه قد سار على قدميه مسافات طويلة!

لا تنسوا، أن العدو الذي تراقبونه عدو ما زال شرسا وخطرا ،فهو قد أتعبنا كثيرا حين كنا معه في نفس البيت، لكنا خرجنا وأحكمنا عليه الحصار، أي وضعناه في قفص الطيور هذا، أو قفص الحيوانات المفترسة في حديقة الحيوان، وذلك لترويضه ،وبدلا من كونه كان يحلم بحرية

واسعة، سيتقزم حلمه ليصبح مجرد تخفيف الحصار، من خلال تقديم المساعدات، أو من خلال فتحات متباعدة للمعابر، هذا صار يعد بالنسبة له انجازا ،المهم أنه ما زال وهو في القفص في وطنه، لذا فإننا لو فتحنا له باب القفص، أي المعبر، فإنه لن يغادر، وقد حاولنا عام 2009، حين دخلنا قطاع غزة من شمالها، أن ندفعهم أمامنا باتجاه الجنوب ،ليهربوا إلى سيناء، لكنهم لم يفعلوا، واجهوا خطر الموت ولم يهربوا، ذلك أنهم حين يدركون رغبتنا فإنهم يرفضون تحقيقها لنا، لكن حين يأتي الأمر منهم أو من بينهم، فإنهم سيفعلون ،أي أن أفضل طريقة لنا كي نطبق عليهم الحكم هي أن نحكمهم عبرهم، ومن خلا لهم.

راقبوا جيدا، وأطلقوا النار على كل حجر يتحرك من مكانه

.قام الشيخ بإعداد هدف وهمي، حضّر له طوال أيام، حيث أظهر وجود حركة في نقطة محددة، ومن ثم حفر بين مجموعة من الأشجار الحدودية، ونبش التراب، وكأن ما يظهر عبارة عن فوهة نفق، أو موقع لإطلاق الصواريخ، وقد فعل ذلك كطعم ،ما أن يلمحه العدو،

حتى ينتابه الفضول الأمني، للوقوف عند ماهيته، وما أن انتهى الشيخ، حتى نشر عيونه تراقب، وهي متوثبة ،ولم يطل الوقت كثيرا، حتى ظهرت ال "كواد كابتر" في سماء تلك المنطقة، وما أن هبطت قليلا، لتقوم بتصوير تلك النقطة ،حتى فاجأتها نيران المقاومة، وما هي إلا لحظة وكانت المسيّرة الإسرائيلية تسقط بين يديه، بكل ما فيها من أسرار وخفايا ،ساعدته لاحقا على أن يفكر في صنع طائرة الأبابيل .

28

تعمقت ثقة نبيل بسيارته، بعد أن قام "بالتشكييك" عليها ميكانيكيا وكهربائيا، فعاد بها، وهو يشعر بالنشاط، خاصة بعد مكالمته مع فدوى، وفي الطريق عرج على محل الحلويات ،وأشترى كيلو ونصف مشكل، عاد به إلى أمه، وقد بدأ يفطن إلى أنها صارت تقضي وقتا أطول وحدها، ولهذا السبب، صارت تزور جاراتها، خاصة أم حسام، بشكل يومي تقريبا .

دخل على أمه وبيده "سبط" الحلو، تناولته منه، وقالت:

-تسلم ايدك ياأمة، وإن شاء الله كل أيامك حلوة، بس اجيخاطر عبالك؟ وألا ليكون في مناسبة وألا اجاك خبر وقلت أحلّي؟ - هو في منهّ، بس قبل كل إشي، صرت أشتاق لك يا ست الحبايب، وصرت أشفق عليك، بأعرف إنه أبوي معظم وقته على بين الشط والحسبة، وأنا صرت طول اليوم ع الخط، وأنت لحالك في البيت، تاني أشي عطلت معي السيارة من أول اليوم ،فرحت الميكانيكي، وظبطتها ميكانيك وكهربا، صحيح دفعت كل غلة الأسبوع، بس ريحت راسي، وتالت أشي ،،،

- مالك سكتت يا باشمهندس؟ كمل تالت اشي،،،
- تالت اشي، بدي أعرفك على هالبنت ..
- قلت بنت يا أمة؟ عاجباك يعني وبدك تاخد رأيي؟
- صحيح.

- عاجباني ما دامت عاجباك، مش تقول عشان كنت حابة تكون بنت خالتك من نصيبك، أهم اشي عندي سعادتك .

انحنى على يد أمه يقبلها ويقبل رأسها، وقال: عارف يا امة عارف والله، الله يخلي لي إياك ويطول بعمرك، بس أوعك تحكي لأبوي، إلا بعد ما تشوفيها وتعجبك.

- توكل على الله يا أمة، اتفقنا .

29

سوزان أم الاقتراحات والأفكار، اقترحت على صديقاتها ،أن يذهبن "طشة" ع البحر يوم الجمعة، كانت الفكرة بالنسبة إليهن مدهشة، فهن كن يحلمن بالبحر، لكن الذهاب إليه مع العائلة، يعني بأن تظل الواحدة منهن جالسة بجوار أمها وأخواتها، تجهز الشاي والساندويشات، وحين تنزل البحر فبكامل ملابسها، حتى البوركيني غير وارد في بحر غزة، كذلك تبقى مثل الظبي بين القطيع، محسوبة أنفاسها عليها، حيث الحلم ممنوع، والتطلع للسماء غير وارد.

وافقن بالطبع بشدة، وشرعن بترتيب الأمر، ناقشن أولا المصاريف، وأيهما الأفضل أن يقوموا بحسبة ما سوف يحتجن إليه، ومن ثم تدفع كل واحدة حصتها، فيما تكلف واحدة أو أكثر بشراء تلك الاحتياجات، أم أن يتفقن على عرض ما سيجلبن معهن، وتكلف كل واحدة منهن بإحضار شيء محدد، وكان أن جمعوا بين الأمرين، فكلفت فدوى بإعداد الساندويتشات، على أن تشمل الجبنة والمارتديلا، الزعتر والدقة والبيض، كذلك بعض ساندويشات الفلافل، فيما كلفت شيماء بجلب الفواكه ،أما س وزان فعليها أن تجلب الموالح، تتضمن بزر البطيخ المحمص، والفستق، لينا الرقيقة مثل الفراشة والحالمة، كلفتبإعداد الطائرات الورقية والبلالين، كذلك بإحضار كرة الريشةوكرة القدم، ولم يبق سوى فدوى فضل التي ينادونها بإف إف ،وأحيانا بأف، تمازحها الواحدة منهن بإطلاق التأفف، فيضحكن على عصبيتها وحدّتها وردة فعلها السريعة .

قالت سوزان، ظلت الأخت فدوى أف أف، شو بدها تجيب معها؟

سارعت فدوى فضل بالقول: أنا بآجي لحالي، ما بيكفي؟جاملتها شيماء بالقول: والله جيتك بالدنيا، بتنورينا أختي وحبيبتي، بس الأيد البطالة نجسة

تدخلت لينا بالقول: بنتقاسم أنا وفدوى الإكسسوارات.

سارعت فدوى إبراهيم إلى القول: شو؟ إكسسوارات؟ آه منك يا مسهوكة أنت، هلقيت صار القبع والكورة إكسسوار؟ طيب وليش تتقاسمي معها؟ يعني شايفة إنه أغراضك بتكلفك كتير؟فضت الجدل آم الأفكار قائلة: سكوووووت هنصور فانفجروا بالضحك

فتابعت: أنا لقيت الحل يا جماعة، ما بدكوا تتغدوا؟ خليها تعمل لنا مقلوبة وتجيبها معها، وألا تجيب حلويات، انتو اختاروا ،وألا احكي لكو، اختاري أنت شو بدك يا ست فدوى فضل. ردت فدوى قائلة: مرحبابكو، بأعمل لكو مقلوبة وبجيبكمان حلويات، غاليين عليا وطلبكو رخيص.

رقصت سوزان فرحا وقالت: أنت كريمة وإحنا بنستاهل ،هيك بنات الأصول وألا بلاش .

30

يكاد الحد الفاصل بين مدينتي رفح الفلسطينية ورفح المصرية، أن يكون وهميا، وهو كذلك بالنسبة للكثير من مواطني المدينتين المتجاورتين، اللتين يفصل بينهما سلك شائك، لا يكفي ليقطع حبل الود بين الناس على جانبيه، بل يكاد ذلك الفاصل أن يكون مصطنعا بالنسبة لكل سكان قطاع غزة، الذين منذ ثمانين عاما، لا يجدون أمامهم سوى الممر الإجباري، وهو الدخول إلى مصر، إذا كانوا يرغبون بالسفر الى الخارج. ولم يختلف الأمر باختلاف العهود على جانبي الفاصل الحدودي ،فمنذ عام 48 والحال هو هكذا، تتابعت عهود حكم مختلفة على قطاع غزة، من الإدارة المصرية، للاحتلال الأسرائيلي، إلى سلطة الحكم الذاتي، وانتقل الحكم في مصر من عبد الناصر للسادات لمبارك للسيسي مرورا بمرسي، ولم يختلف الأمر لا في كثير أو قليل .

وصل الدكتور محمد مقهى "أم كلثوم" في مدينة القاهرةالصغيرة برفح، ولم يكن الدفش قد وصل بعد، وكان

الدكتورالجامعي قد قرأ تقريرا صحفيا عن مشروع القاهرة الصغيرة ،لكنها كانت المرة الأولى التي يزور فيها ذلك المكان الذي يقع على الطريق الساحلي، ليس بعيدا عن الحدود الجنوبية لقطاع غزة، لذا كانت فرصة له، ليلتقط الصور أمام مجسم الأهرام ،وأبي الهول، كذلك مسجد الحسين، وكأنه فعلا في القاهرة ،أعجب كثيرا بالفكرة التي تم تنفيذها على مساحة ثلاثة دونمات من أرض رفح، وفيما هو يتجول في المكان، إذ بالسيد نضال ،يرحب به، ويدعوه لشرب الشاي أو القهوة، فشكره كثيرا، واعتذر كونه ينتظر صديقا، هو على موعد معه، وما هي إلا لحظات وكان أبو حفص يدخل المكان بهالة واضحة، تعمّد أن يقول من خلالها للدكتور محمد بأنه رجل مهم، فقد جاء بمرافقين، وقفا حين اقترب من الدكتور محمد، وظلا على مقربة منه.

أسقط بيد الدكتور محمد، ولم يعرف ماذا يقول، وبعد أن سأل ضيفه عما يشرب، أجابه أبو حفص: زهورات.

قدم نفسه إليه، وتلعثم، وما كان يمكنه أن يعرض عليه ما كان ينوي أن يقوم بعرضه، فمن الواضح أن الشيخ إبراهيم ليس بحاجة إلى أن يعمل لدى الدكتور محمد، ولا حتى سكرتيرا شخصيا، بل ربما كان بمقدوره أن يوصي عليه

رئيس الجامعة، بما يبدو عليه منسلطة ونفوذ، تساءل بداخله، لكن لم لم تخبرني فدوى بهذا؟ ربما لأنها أرادت أن أعرف حقيقة أبيها بنفسي، ومن خلالي أن تفرض على الجميع مهابتها، وبينما هو يحاور نفسه، بادره الشيخ بالقول:

- اه يا دكتور تفضل، ايش كنت بدك تحكي لي؟أجابه بصوت منخفض:

- كانت رغبتي أول اشي أتعرف على حضرتك، وأنت شخص معروف وإلك مكانتك، وكمان حتى احكي لك قديش بنتك ما شاء الله متفوقة ومؤدبة ومحترمة، وأنها فخر الجامعة، وكنت أفكر إنه من خلال لقائنا، ممكن نتعاون بأي شي يفيدنا شخصيا ويفيد المشروع الإسلامي عموما، أنا بعلمي ومكانتي الأكاديمية وأنت بمكانتك الوظيفية ونفوذك وحظوتك عند المسئولين.

- اها منيح الكلام، لكن صعب من أول لقاء نتفق على مشروع محدد، المهم عندي إنه سمعة بنتي منيحة وإنها عاجبه أستاذها.

ارتبك الدكتور محمد، من تلميح الشيخ، وقال: اه طبعا تلميذتي وأنا فخور فيها.

رد عليه الشيخ أبو حفص: اسمع يا دكتور، أنت دكتور وأنا جمعت عنك المعلومات الكافية، وما فيك عيب، بتظل أنت رجل وبنتي بنت، لا هي متجوزة ولا مخطوبة، والحلال لا منهعيب ولا حرام.

اندهش الدكتور محمد، واحمر وجهه، ولم يعرف بماذا يرد ،فعاجله الشيخ بالقول:

- أظن انك كنت جاي تتعرف علي، لحتى تمهد وتطلب ايد بنتي مني، وأنا مفش عندي مانع، بس البنت نفسها توافق ،وما راح أقول فرق سن وانك متجوز وعندك أولاد، إحنا دينا الحنيف بيحلل للرجل يتجوز مثنى وثلاث ورباع، والرسول صلى الله عليه وسلم تزوج عائشة وهو ابن خمسين وهي بنت تسعة، والصحابة تجوزوا كتير، أما إنه المسلم يتجوز وحدة بس ،ويكونوا بنفس العمر

ومستوى التعليم، وايش كمان متفاهمين–وضحك هنا– فهذا كله كلام فاضي وبدع العصر الحديث ومش من سيرة السلف الصالح في اشي.

قال الدكتور محمد بارتياح: أنت هيك يا شيخ اختصرت علي ،وأنا الله راضي عني، إني قابلتك، وأنت ايش بتقول أنا موافق.

رد الشيخ: خلص أنا بشوف رأي البنت وبرد لك خبر ،وهلقيت اشرب شايك، وبنظل على اتصال، بس قبل هيك ناخد لنا شوية صور مع بعض .

31

عاد إلى البيت مبكرا، أي قبل غروب الشمس، وبيده أكياس الخضار التي أوصته عليها، وكانت لحيته قد طالت، فيما بدت الهموم مرسومة على وجهه، والتعب موزعا في أوصاله، يجر قدميه، كما لو كان عمر الرجل سبعين سنة،

هو الرجل الذي يوزع السرور على كل من يرافقه او يتعامل معه، لا يشعر بالسعادة حقا، ويكتم في نفسه قلقه وتوتره وقلة حيلته، ليس على نفسه ،ولكن على ولده الذي خرج به من الدنيا، وعلى أهل حارته وعلى شعبه الذي لم ير يوما منذ عقود طويلة فيه راحة بال، وما أن خرج الاحتلال من بين شقوق قطاع غزة، الذي عاش وحيدا منذ النكبة، حتى قامت حرب الأخوة الأعداء، فجعلت طعم الحرية مرا، وكأن القدر مصرّ على أن لا يتنفس قطاع غزة هواء نقيا، ولا أن يعيش مثل كل البشر ،"وكم كان ظلم ذوي القربى أشد مضاضة" من وقع سيف الاحتلال، وكل ذلك بدافع سلطة هي في حقيقة الأمر سلطة واهية.

ألقى التحية على زوجته التي لا يخفى عليها ما رأته فيه ،فتكدرت فورا، وقالت:

- قوك يا أبو نبيل، مالك يا زلمة، ما في شر، اقلقتني عليك. رد بالقول:

- ما في اشي، أنت اللي مالك، بدك تخليني صاير لي اشي ،وأنا ما في اشي، غير هم كل يوم.

- يا خويا لا هم ولا ما يحزنون، الله لا يجيب هم، أنت اقعد ارتاح شوي على بال ما أعمل لك لقمة، وأجي اقعد جنبك وأخبرك هالخبر الحلو.

- خبر حلو؟ معقول لسة في أخبار حلوة؟ ايش سمعت أنهم اتفقوا، عملوا مصالحة وانهوا الانقسام؟

- أنت هذا هو اللي هامك؟ يا رجل ارمي من ورا ظهرك، في إلنا رب إسمه الكريم، وآخرتها إلا ما تفرج، أنت بس لا تفكر غير في حالك وبيتك، وابنك، والرزق على الله، وهيها مستورة والحمد لله.

- طيب قولي لي المهم، ايش هو الخبر الحلو؟

- خليني الأول أجهز لك العشا.

يمسك يدها ويجلسها، ويقول:

- العشا بعدين، وإذا كان الخبر حلو زي ما بتقولي بصير بدنا نتحلى مش نعتشى.

لا تجد مفرا من القول، ونسيت ما كانت قد وعدت به ابنها ،وحتى أنها حاولت تأجيل قول الخبر لزوجها بضعا من

الوقت ،لكنها فعلت ذلك لتدخل البهجة الى قلب الرجل الذي دخلعليها البيت وهو متكدر، على غير عادته التي تعرفها جيدا منذ أكثر من ربع قرن .

32

كان الجو لطيفا، وكان شاطيء البحر ضاجا بالناس، حيث صار البحر خلال سنوات الحصار، ومنذ أن سيطرت حماس على مقاليد الحكم في قطاع غزة، هو المتنفس الوحيد للناس ،ورغم ذلك لم يسلم هو أيضا من حماة التقاليد والعادات الذين يتجولون في كل مكان، بحثا عن أحد خارج عن تقاليدهم، وما أن يروا رجلا وامرأة، أو شابا وفتاة معا، وإن كانا في المكان العام ،حتى يسارعوا إلى طلب إبراز ما يثبت أنهما زوجان، أو أخوان .

النزهة صارت على شاطيء البحر، مثل الحج إلى مكة والمدينة، تحتاج محرما، قد يقبل بعض حماة عرين الدين ،بمجموعة النساء معا، كبديل للمحرم الرجل، على أن كل هذا لم يعن مجموعة الفتيات في شيء، بل هو لم يمر بخلدهن أصلا، وما أن وصلن الشاطيء حتى سارعن إلى

استئجار خيمة وكراس، ثم وضعن ما جلبن معهن من أشياء في الخيمة، ونصبنالكراسي على حافة الشاطيء، وجلسن يتأملن الموج الذي كانيأتي ويذهب في هدوء ورتابة، كما لو كان مبرمجا هكذا علىالطاعة الأزلية، مثل نساء الشرق .

أخرجت شيماء من شنطة يدها قطعة قماش، وإبرة وبدأت تتابع "التطريز" الذي يبدو أنها قد بدأته من قبل، وحيث أنها على ما يبدو أيضا تتقن هذه الهواية النسوية المنتشرة كثيرا في بلادنا ،فيما كانت لينا تتصفح موبايلها، وتقرأ بعض المقاطع الشعرية ،فدوى فضل كانت بدورها تضع في أذنيها السماعات المشبوكة بهاتفها المحمول، وتستمع لوائل جسار المغني اللبناني الذي تحبه كثيرا، وحدها سوزان كانت بهدوء تتأمل البحر، متمددة على الكرسي ومسترخية، تفكر في أمر ما، أو أنها تحلم، ما بين الصحو والغفوة.

فوجئوا جميعهن حين رأين فدوى إبراهيم، تضع حامل الرسم على الرمال، ثم تخرج من حقيبتها الألوان المائية،

وتبدأ في رسم اللوحة التي تنوي رسمها، والتي ستكون طبيعية، تمثل مشهد الغروب، حيث أخذت على نفسها عهدا لهن، بأنها لن تعود للبيت إلا واللوحة قد اكتملت .

لم يمر يوم البحر بهدوء على أي حال، فكثير من العيون كانت تراقبهن من بعيد، أو تحاول أن ترسل لهن أشارات خاصة، لكنهنشعرن بالقوة وهن مجتمعات، أكثر مما كانت تشعر الواحدةمنهن وهي مختبئة في بيتها، تغلق باب الدار وباب الغرفة، ولهذالم يجرؤ أحد على أن يتحرش أو حتى يتحركش بهن، لكن ذلك لم يمنع من أنه بين فينة وأخرى، كانت تنفجر هنا أو هناك مشكلة فيعلو صوت الناس، فقد تابعن باهتمام تدخل رجل قدم نفسه على أنه عنصر مسئول عن أمن الشاطيء، محتجا على أن طفلة بعمر السادسة ترتدي مايوه سباحة، وقام بتهديد أبيها مطالبا إياه القيام فورا بستر عرضه، وإلا قام بجرّه للمركز، وحين قال له الناس بأنها طفله، أجاب بكل ثقة:

- هو أنا مش شايف وألا مش عارف؟ لكن أولا هذه هيك راح تتعود، واثنين في مراهقين، ما بتسمعوا عن اللي بيهتكوا عرض الأطفال، مش عنا أه لكن في كتير دول عربية .

وتابع: لو بدنا نرد عليكو، كان قلتوا لنا انه البنت تلبس المايوه لحد عمر 16 سنة، وألا على الأقل لحد قبل البلوغ، خلص قلنا ممنوع يعني ممنوع.

كانت فكرة اللوحة مدهشة، وكانت عبارة عن لوحة داخل لوحة، رسمت فتاة على شاطيء البحر تقوم برسم لوحة فنية ،كما لو كانت ترسم نفسها، ولكن بدلا من أن ترسم المشهد الذي يحيط بها من شاطيء بحر وصديقات حولها، فتية ونساء ورجالمنتشرين على شاطيء البحر، لحظة غروب الشمس، أرادت أنترسم المشهد من داخلها، أي كما تحسه، وليس كما تراه، كانتاللوحة التي تقوم فتاة الشاطيء برسمها عبارة عن شباك أو نافذة مغلقة بقضبان حديدية، كما لو كانت قضبان طاقة السجن، تظهر وجه إنسان، فيما خلفه تبدو حشود الناس، أطفال ونساء ورجال ،وكانت الصورة مؤطرة بأربعة حواجز، أحدها كان البحر، ثم حاجز كان عبارة عن أسلاك شائكة، فيما كان الحاجز الثالث معبر بيت حانون، والرابع كان معبر رفح.

ما أن غابت الشمس واكتملت اللوحة، وبدأ الناس في مغادرة الشاطيء، حتى كانت البنات قد بدأت في إعادة ما نثروه من أغراضهم الخاصة، فيعيدونه للحقائب، وما أن ألقين نظرة على اللوحة حتى أصابتهن الدهشة، في حين أخذت سوزان تتأملها وتسأل فدوى عن الألوان الغامقة وعن النظرة السوداوية بشكل عام، وبعد حوار مع صديقتها، أعلنت إعجابها بنضج فدوى الفني، ثم اقترحت أن تكون اللوحة هي صورة بروفايل الجروب ،ثم عدن لبيوتهن وهن يوصين لينا، بأن تنشر على المحادثة الجماعية الصور التي التقطتها خلال الرحلة، قبل نشرها على صفحة الجروب .

33

بعد قليل من عودتها إلى البيت، جاء أبوها محملا بكل الخضار والفاكهة وحتى الموالح، سلم عليها، وعلى غير عادته بدا بشوشا ،منبسط المحيا، سألته أن تحضر له العشاء، فأجاب بالنفي، وطلب منها أن تجلس إلى جواره، لأنه يريد أن يتحدث معها في موضوع مهم يخصها

ويخصه، استغربت وكانت قد نسيت أمر الدكتور محمد، وما أن جلست إلى جواره حتى بادر إلى القول:

- أسمعي يابا أنت عارفة إني مليش غيرك في الدنيا، ولو كان الأمر بايدي، ما كنت اقبل إنك تبعدي عن عيني لحظة، لكن سنة الحياة، البنات تكبر وتتزوج.

فهمت على الفور، بأن هناك من تحدث معه طالبا القرب منه فيها، استغربت، أيكون نبيل بهذه السرعة قد اخبر أمه، التي تكون قد أخبرت زوجها، والذي بدوره طلبها من أبيها؟ مستحيل أن يحدث كل هذا بهذه السرعة، ودون أن أعرف؟

وقبل أن يذهب تخمينها نحو الدكتور محمد، تابع أبوها:

- عارفه مين قابلت من يومين؟
- مين؟
- الدكتور محمد، أستاذك بالجامعة

فهمت كل شيء، فقالت:

- معقول؟ وطلب ايدي منك؟

- هذا اللي صار يابا دون أن تفكر قالت:

- صحيح ما بيستحي، أكبر من أبوي ومتجوز وعنده أولاد وأحفاد كمان، كان مفهمني غير هيك.

- اسكتي يا بنت، عيب تحكي هيك يابا، الحلال لا منه عيب ولا حرام، بعدين ايش كان مفهمك؟ هو كان متفق معك على اشي تاني؟

- آه يابا، كان سألني عنك، وكان بيفكر يعني يدبر لك شغل.

- يدبر لي شغل؟ إلي أنا؟ ههه عشان هيك أول ما شافني اتخربط كيانه، عرف إني بأقدر أنا اشغله واشغل رئيس الجامعة تبعه عندي . طيب المهم، أنت ايش رايك؟

- يابا أول اشي أنا بدي اخلص الجامعة، ولما يصير بدي أتجوز ما بتجوز واحد بعمر أبوي، لو ايش ما صار.

- ماشي يابا، خلص علم، انس الموضوع وإذا حسيت انه ضايقك أو ضغط عليك في العلامات، احكي لي لأقطع رقبتة.

أم نبيل تقول في سرها:

- سامحني يا رب وعدت ابني، بس مش هاين علي أشوف أبوه متنكد، وهم الأتنين، ما إلي غيرهم، هم اللي طلعت فيهم من الدنيا، ما بيهون علي واحد منهم، بتهون علي حالي، ولا بيهون علي ابني اللي هو أغلى من روحي، وجوزي اللي هو أبو ابني وعشرة عمري.

وفي اللحظة التي تهم فيها بإخبار زوجها، إذا بنبيل يفتح باب الدار، يفاجأ بأبيه، فيسرع بالقول:

- وأنا أقول ليش الدار منورة، مش بس الدار، كل الحارة والله، اتاري أبو نبيل بالبيت .

تنبسط أسارير الرجل، فيما تسارع الأم إلى القول:

- هو صحيح أبو نبيل بنور الحارة والبلد كلها، لكن الدار مش بتنور إلا بأبوك يا باشمهندس نبيل، على كل

حال، ما بازعل أنا ،خيارنا منا وفينا، وأنت ابن حلال، لسة بدي اخبر أبوك الخبر الحلو.

ضحك نبيل وقال:

- يا ست صبحية هي مبتنبلش في تمك فولة؟

هنا تدخل أبو نبيل قائلا:

- فهموني ايش القصة، هو الخبر الحلو اله علاقة بنبيل؟ليكون اجاك تعيين وألا وظيفة محرزة يابا؟ترد عليه زوجته بالقول:

- طبعا يا زلمة، هو في أحلى من ابنك وأخباره؟ بس احزر ايش هو الخبر؟ لا وظيفة ولا تعيين؟يفكر أبو نبيل ويحك رأسه، ثم يقول:

- ما دامك مبسوطة لهالدرجة، معناته وافق يتزوج بنت أختك.

ترد عليه بالقول:

- أخ منك أنت، هو بده يتزوج، بس مش بنت أختي ولا بنت أخوك.

يتوجه الرجل إلى ابنه سائلا:

- بنت مين يابا؟ حدا بنعرفة؟

يرد الشاب بما يفاجيء أمه التي لم تعرف حتى اللحظة من تكون البنت وأبوها:

- آه بتعرفه، جارنا في الحارة الشيخ إبراهيم، أنا بعد موافقتك أنت وأمي، وبأمر الله ناوي اخطب بنته فدوى .

يفتر حماس الرجل وزوجته، ثم يسأل الرجل إبنه:

- أنت بتعرفها للبنت؟ كيف هي؟ حلوة يعني وأخلاقهامنيحة؟ بالنسبة لأبوها، مش كتير بتناسب يابا ولا بنقرب، لكن ليش ناخد البنت في جرة أبوها!

- البنت يابا جمالها عادي، بس رجالية، جدعة وشجاعة ،طالبة جامعة، بتطلع معي هي وصاحباتها على الجامعة، وصرت عارف عنها كل اشي، هي غير أبوها كتير.

يرد الأب فيما الأم تظل صامتة:

- على بركة الله، خلي امك تشوفها وتنقدها، وأنا بعد هيك بقابل أبوها وباخد له الجاهة وعادة الناس، وما بيصير إلا الخير ،إن شاء الله .

35

منذ أن ألتقاه في مدينة القاهرة الصغيرة، والدكتور محمد ،يجمع أكبر قدر من المعلومات عن الشيخ إبراهيم، بحجة أنه يعد بحثا عن شخصية منتقاة عشوائيا، انتمت للحركة، في فترة متأخرة من حياتها، ليقف عند الأسباب والدوافع، التي جعلت من حركة المقاومة الإسلامية حركة رائدة في حقل المقاومة، وحتى تحتل هذه المكانة المرموقة وطنيا وإقليميا، وقد فوجئ بما كان عليهالشيخ في شبابه من طيش وعدم مسؤولية، ثم دهش حين وقفعند المكانة التي يتمتع بها حاليا، والتي حققها في زمن قياسيتقريبا، وهو الذي كان يظن بأن الشيخ قد يكون بحاجة له ليجد لهعملا يوفر له لقمة العيش فقط، عند ذلك فطن إلى أن أياما مرت دون أن يجري اتصال بينهما، لذا تناول الدكتور محمد هاتفه وضغط على رقم الشيخ .

جاءه الصوت متسائلا عما يريد، وقد كان صوت مرافق الشيخ ،وبعد أن عرّف الدكتور بشخصه، وأنه يريد أن يتحدث مع الشيخ ،طلب منه المرافق أن ينتظر قليلا،

وفعلا بعد دقيقة، كان الشيخ يسأله عن أحواله، وعن الجامعة وعن أحوال الأساتذة، ثم دار الحديث بينهما حول الشأن العام، دون أن يتطرق أحدهما إلى أمر خطبة فدوى من قبل الدكتور محمد، إلى أن فاجأه الشيخ قائلا:

- صحيح يا دكتور، إحنا صرنا إخوة في الله، إن شاء الله، والله يديم علينا الود والمحبة، ونصير اكتر من أخوين، بدي منك خدمة شخصية، وايش بتكلف أنا جاهز من ألف دينار لعشرة آلاف.

رد الدكتور قائلا:

- تفضل يا شيخ، أنا تحت أمرك في كل اشي بأقدر عليه.

قال الشيخ:

- اسمع وما بدي حدا غيري وغيرك يعرف، لأنه أنت عارفإحنا تحت الأرض، ومستهدفين من طوب الأرض، بدي شهادةدكتوراه، عشان المهمات الجهادية، وما بدي أشرح كتير، وأنتفهمك كفاية.

- مفهوم يا شيخ، مفهوم، أنا ما علي إلا إني أعد الشهادة واخلي البيانات فاضيه، ونختمها من رئيس الجامعة، بس أنت عارف أنا برتب كل إشي، بس عليك برئيس الجامعة، لو تحب أعطيك إياه تحكي معه.

- ما في مانع باحكي مع وزير التربية والتعليم العالي، لو احتاج الأمر، بس مش هلقيت يا دكتور، الأحسن انك تمهد للموضوع ،وتعطيه فكرة، وبعد يومين أنا بأتصل عليك وباحكي معه .

- اتفقنا شيخنا

- اتفقنا يا دكتورنا.

36

ما أن انتهى من الحديث مع الدكتور محمد، حتى جاءه المراسل بورقة مغلقة، فضها وقرأ ما فيها، عرف أنه مطلوب للقاء مسئول الأمن الداخلي، وذلك لمواجهة موعد تجمع عدد من الشبان الذي أطلقوا مصطلح "حراك بدنا نعيش"، وذلك بمناسبة يوم الأرض، وبعد مرور عام

على إطلاق مسيرات العودة، التيقررت حماس وقفها بعد عام من إقامتها بشكل أسبوعي، كل أيامالجمع، دون نتيجة، وبعد أن أدرك الشباب بأن هدف مسيراتالعودة كان تحسين شروط الحصار، وبالتحديد إدخال المنحةالقطرية، وبعد أن يئسوا من فك الحصار، تحولوا بطاقتهم الرافضة والغاضبة للداخل .

فجأة ظهر مشهد السياج المنتفض أمام عينيه، وفجأة مرت بمخليته تلك المرأة المنقبة، التي اهتمت به ذلك اليوم، ومرت أيام كثيرة قاربت من العام، لم يرها فيه، تعجب للخاطر وهو الذي لم يذكر أن امرأة علقت في ذاكرته منذ أن توفيت زوجته، ثم بدأ يفكر فيما عساه أن يحضر لمواجهة العدو من الداخل، هؤلاء الشباب الأغبياء، لا يفهمون أن من شأن احتجاجهم الداخلي أن يضعف الجبهة الداخلية، وأن يجعل العدو يتوهم بأنه قادر على إسقاط المقاومة من داخلها، لابد إذا من الضرب بيد من حديد ،على العدو الداخلي، فلا يمكن أن نواجه العدو

الخارجي بجبهة داخلية مهلهلة، هكذا قال في نفسه، ثم تابع:

-على أي حال، علي أن أسمع التعليمات من أميرنا، ومن ثم علي تنفيذها بالحرف الواحد، وبكل قوة، وأنا متأكد من أن الأمور لن تخرج عن السيطرة، فيد الله تمدنا بالملائكة وبحسن التدبير

37

كان رد الفعل على صفحة الجروب مذهلا، فقد جمعت لوحة فدوى التي وضعت كخلفية للبروفايل، مئات اللايكات والتعليقات، لدرجة أن أكثر من شخص عرض شراءها، وأن كثيرين عرضوا على الرسامة المشاركة في معارض قادمة ،تخصص لقطاع غزة، بهدف إظهار وحشية الحروب الإسرائيلية المتواصلة عليها، كذلك آثار الحصار الصهيوني المتواصل ،الذي حرم مليوني مواطن من أبسط حقوقهم كبشر، ثم ما أن بدأت لينا بتنزيل صور البحر، والتي لا تظهر فيها الفتيات مباشرة، بل كانت الصور في غالبيتها العظمى صورا للبحر وقت الغروب،

صورا للطائرات الورقية، وصورا تظهر الفرح الطفولي لأطفال يغطسون في الماء، حتى بدأ مئات من طالبي الانضمام للجروب يرسلون لهن طلباتهم، لذا تدخلت سوزان وطلبت من لينا وشيماء، المسئولتين عن متابعة الجروب، عدم قبول الطلبات بشكل تلقائي، بل بعد فحص، يتم التأكد خلاله من صاحب الطلب، وملاحظة أولا أنه ليس وهميا، وثانيا أنه شخص محترم، وذلك من خلال بروفايله الذي يتضمن بياناته الشخصية ،ثم من خلال صداقاته، وتم اتخاذ قرار حازم بعدم قبول أصحاب الأسماء المستعارة، والصفحات الغامضة .

خلال أيام قليلة، كان عدد المنتسبين للجروب قد تجاوزالألف، معظمهم من النساء بالطبع، فاقترحت أم الأفكار، أن يتمعمل هيكل تنظيمي، ترأسه بالطبع الفتيات الخمس كمجلس إدارة الجروب وما سيظهر لاحقا من أدوات أخرى، مثل مجموعة الواتس أب، ثم تلي مجلس الإدارة مجموعات مختصة، إحداها تعنى بشؤون توظيف الفتيات، وأخرى بتقديم النصائح ومساعدة النساء على

المهن الحرفية مثل التطريز وصنع الحلويات، وثالثة تعنى بمتابعة النساء المتزوجات اللواتي يتعرضن للمشاكل الزوجية، ورابعة تهتم بتزويج البنات زيجات ناجحة، ثم اقترحت أن يتم تصميم موقع يوتيوب، تتحدث فيه النساء عما يتعرضن له من قمع واضطهاد مركب، في بلد ذكوري محتل .

كان من شأن هذه الأفكار أن تتحول بالمجموعة إلى قوة مجتمعية بدأت تلفت الأنظار لهن، من كل القوى والمؤسسات والمنظمات الأهلية وحتى الأجنبية .

38

في الصباح وكما هو معتاد، وقبل أن يتجه إلى بيت فدوى ليقلها أولا، اتفق مع أمه على أن تركب إلى جواره، حتى تتعرف على فدوى، ويختصر الوقت، فلا داعي لترتيب موعد، بل يمكن بعد اللقاء الأول العابر، لأمه أن تعرف بيتهم وأن تذهب إليها فيما بعد ،حين تكون وحدها وتتعرف عليها وهي بطبيعتها وفي بيتها، وهكذا كان، وما أن خرجت فدوى من المنزل، وصعدت للسيارة وكعادتها تلقي

تحية الصباح، حتى ردت السيدة، وليس نبيل، قالت السيدة:

- صباح النوروأرفقتها بالقول:

- ما شاء الله، سبحان من صور وخلق، والله عرفت تنقي يا أما.

حينها فهمت فدوى "المقلب" فقالت:

- هيك يعني يا باشمهندس، تعملي مفاجأة، كان لازم تعطيني خبر أو إشارة عشان أسلم منيح على ست الكل، ثم نهضت واحتضنت السيدة صبحية وهي جالسة على المقعد الأمامي للسيارة، وقالت لها:

- الله يبارك لك في ابنك يا أمي . والله أنا محظوظة وأمي دعت لي وهي بتموت .

بقيت فدوى وأم نبيل هكذا مدة خمس دقائق، فتدخل نبيل قائلا:

- طيب إحنا هيك حققنا هدفنا، هيك يا أمي عرفت البيت ،ومنك لفدوى، بتتصلوا على بعض بأي وقت تحبوا

وتشوفوا بعض . ثم عاد بالسيارة لبيتهم، ليعيد أمه اليه، وهكذا عرفتهفدوى، ومن ثم أكمل معها جولته المعتادة على الفتيات فاقلهنواحدة بعد أخرى .

39

بعد أيام قليلة، دق جرس موبايل الشيخ الدكتور أبي حفص ،فرد المرافق، ثم طلب من المتصل أن ينتظر قليلا، أخبر الدكتور الشيخ بأن رجلا يقول بأنه ابن حارتك واسمه أبو نبيل يريد أن يتحدث إليك في أمر شخصي .

أخذ منه الموبايل وهو يقول: جاري أبو نبيل بده اياني في شأن شخصي؟ أكيد بده واسطة يمكن لابنه لأشوف له شغل، والّا إله يمكن بده مساعدة، كابونة وألا حاجة، مهو كل أهل حارتي ما عاد الهم حدا غير الدكتور الشيخ، طيب هات لأشوف الأخ اللي بيقول جاري وهو فتحاوي، ايش بده.

استمع لأبي نبيل، وحين عرف أنه يريد منه موعدا لزيارته في بيته يوم الجمعة، رد على الفور قائلا:

-إلا يوم الجمعة يا حج سعيد، عندي شغل مهم كتير، ما أنت عارف شغلنا كله أيام الجمع، مهو شغلنا عبادة، الله وكيلك ،جزاؤنا إن شاء الله مثل ثواب صلاة الجمعة، عموما بعد الجمعةأنا باتصل عليك وباحدد لك موعد، أهلا وسهلا فيك ،،،،.

صمت قليلا ثم قال:

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

40

يوم الرابع عشر من مارس/آذار كان الشباب الذي انخرط بمعظمه في مسيرات العودة على مدار العام الماضي، ينزل للشارع في مخيم جباليا، مهد الانتفاضة الكبرى عام 1987، وفي ميدان مخيم دير البلح، الذي يتوسط قطاع غزة ويعتبر منطقة حيوية جدا من الناحية الاقتصادية، بدلا من الطائرات الورقية والبالونات كانوا يحملون الطناجر

وأدوات المطبخ من صحون وملاعق وكبايات وصواني، إضافة إلى لافتات مكتوب عليها بالبلدي وبكل بساطة "بدنا نعيش"، مطالبين بأبسط حقوق البشر، الحق في الحياة.

الحقيقة أن حماس اعتبرت أن الحراك موجه ضدها، رغم أن المشاركين لم يعلنوا انحيازهم لأحد طرفي الانقسام الداخلي ،لأن توقيت التظاهرة جاء بعد فرض نظامها الحاكم ضرائب إضافية على المواد التموينية الأساسية خاصة الخبز والبقوليات والخضراوات والدخان، وما أن تجمهر الشباب في الشوارعحتى كانت عناصر الأمن والشرطة بزيها العسكري في انتظارهم.

تجنب نبيل الذهاب بسيارته خارج محافظتي رفح وخانيونس ،ولم يقترب من الوسطى، وبالطبع غزة والشمال، وذلك لتجنب المرور بما من شأنه أن يعرضه للخطر، خطر أن يضطر لحمل ركاب مطلوبين، أو أن تتعرض سيارته أو هو لأي مشكلة، أو أن يضطر للتوقف أمام الحواجز والتفتيش وما إلى ذلك، من استجواب ميداني، لا يسلم منه أي شخص، حتى لو كان عابر طريق،

وطوال الوقت كان يتلقى الاتصالات من أمه ومن أبيه، أما فدوى فقد سارع هو للاتصال بها، وجن جنونه حين عرف أنها قد خرجت هي وصديقاتها لميدان مخيم دير البلح، ولهذا كانت المكالمة متقطعة، وقد سمع بنفسه صوت الصخب والجلبة، ثم انقطع الاتصال، وحين حاول بعد ذلك أكثر من مرة، كان كل مرة يجيء الصوت " الرقم الذي طلبته لا يمكن الاتصال به ،حاول لاحقا"، ولم يعرف إن كانت بطارية هاتفها قد فرغت من الطاقة، أم أن شبكة الاتصالات قد تعطلت في تلك المنطقة، لكن احتمال أن تكون قد تعرضت لمكروه، كان الاحتمال الأصعب عليه، والذي سبب له القلق، لدرجة أنه وجد نفسه دون أن يفكر ،يقود سيارته باتجاه المحافظة الوسطى .

بدأت عناصر الأمن بقمع المتظاهرين والتعدي عليهم بالضربالهراوات، ومصادرة هواتفهم المحمولة ومسح ما تم تصويرهللتظاهرة عليها، كما اعتقلت العشرات من الشباب، وبعثت للمئات من المشاركين في الإعداد

للحراك، عبر وسائل التواصل الاجتماعي بطلبات استدعاء، لمراجعة مقرات الأمن الداخلي.

برّرت شرطة حماس قمع المتظاهرين بالطبع، وادعت على لسان الناطق باسمها بعدم حصولهم على إذن مسبق لتنظيم المسيرة ضدّ الغلاء، وبرّرت الاعتقالات بأنّها مجرد استدعاءات للتحقيق في شأن طبيعة المشاركة في الحراك للتوصل إلى معلومات عن القائمين عليه. وقد ظهرت حماس في ذلك اليوم كحركة مستبدة للغاية، لا تحتمل أي "نفس" يخرجه الناس من صدورهم، فحتى بعض قياديها لم يستوعب قمعها لمسيرة سلمية مطلبية، فقال أحد قادتها السياسيين: إن "الحراك لا يعني أن الشارع ضد حماس؛ وأن للحراك رسالة إلى ثلاث جهات: الاحتلال والمنطقة والمجتمع الدولي". كما دعا أحد نوابها في المجلس التشريعي، حركته إلى الخروج في مؤتمر صحافي لتعلن استجابتها واستعدادها تلبية رغبة الجماهير في التنحي عن إدارة الشأن العام وإعطاء مهلة شهر لتحقيق ذلك، وأن تطالب الفصائل وقوى المجتمع المدني

والشخصيات الوطنية في المقابل أن تحدد الطريقة المناسبة لتسلمها الإدارات الحكومية.كان يوم قمع الحراك الشبابي "بدنا نعيش" مناسبة للقاء الشيخأبي حفص مع المرأة المنقبة مجددا، ولأنها هي التي تعرفه، تعرفهشكلا وإسما، وتعرف عنه، لاهتمامها به، أكثر من ذلك، أما هو فكيف له أن يعرفها وهي منقبة، لذا لم يتركها هذه المرة، إلا بعد أن عرف اسمها وأخذ رقم هاتفها، حتى يكلمها لاحقا ويتعرف عليها بشكل جيد، بعد أن يمر هذا اليوم الصعب وتبعاته .

41

رغم أن الإعلام العربي قد تجاهل ذلك اليوم، خاصة الجزيرة التي دائما ما تعاملت مع قطاع غزة، وكأنه البلدية الثامنة لدولة قطر، بعد بلديات الريان، الدوحة، الخور، الوكرة، الشمال، أم صلال، والضعاين، إلا أنه كان واضحا

بالطبع، أن ليست حماس وحسب التي استكثرت على الناس، وخاصة الشباب الذي مرت عليه اثنتا عشرة سنة وهو بلا مستقبل، لا يجد خريجو الجامعات أية فرصة للعمل، ولا يجد المرضى سبيلا للشفاء، ولا المواهب أي أمل بالتحقق، بل حلفاؤها أيضا استكثروا على الشباب أن يغضب على حاله وواقعه، وهو في الحقيقة لا يعرف من هو السبب، ولو كان متأكدا بأن السبب هو حماس، لأنفجر فيها ،فلا شباب غزة ولا كل مواطنيها تنقصهم الجرأة ولا الشجاعة على الكفاح من أجل حريتهم وحقهم في الحياة، رغم تجاهلالإعلام، إلا أن قطاع غزة كله، كان في جلبة، كل الناس فيالشوارع، تجري اتصالاتها وتبحث عن أبنائها وبناتها، إلا الشيخ الدكتور الذي كان يعرف بإبراهيم الدفش، ثم صار "على كبر" الشيخ أبو حفص، وها هو أخيرا يكني نفسه بالدكتور الشيخ الأمير المهدي، فلم يفكر ولو للحظة أن يتصل بابنته، وقد كان يظن أنها في البيت، ولم يقلب كيانه رأسا على عقب، إلا الخبر الذي جاءه عبر الهاتف، ووقع على رأسه كالصاعقة.

مجرد أن عرفت الأخت إيمان، أن فدوى هي ابنة الشيخ إبراهيم أبي حفص، حتى سارعت إلى الاتصال به، ومجرد أن رن جرس الهاتف، حتى كان يرد بنفسه، فهو لا يريد بالطبع أن يعرف مرافقوه أنه يتواصل مع الأخت إيمان، وهو استغرب من مدى اهتمامها به، فقد كان يتوقع بعد أن أخذ رقمها وعرف إسمها، أن تنتظر هي اتصاله، كما هي عادة النساء، لكن أن تسارع للاتصال به، ولم يمض بعد على افتراقهما سوى أقل من ساعتين، فهذا أمر يدعو إلى الدهشة ويؤكد بأن المرأة مندلقة عليه جدا، وأنها تريده للغاية، ولمزيد من "الثقل" انتظر حتى الرنة الأخيرة، وحين رد ،بادرته فورا إلى القول:

- يا أبو حفص، ألحق بنتك

لم يستوعب، وقال:

- أخت إيمان، مالها بنتي؟ صار معها حادث؟ حالتها خطيرةوألا ماتت؟ ايش ألحق فيها، وهي وين؟

- لا أبو حفص، بنتك ما عملت حادث، بنتك كانت في المظاهرة، ولولا إني عرفت من إسمها إنها بنتك، كان حبسوها ،أنا سألتها ولما تأكدت إنها بنتك، اتصلت عليك، حتى تيجي تاخدها، أو تتصل بالشيخ أبو عمر، حتى يعطيني أمر أخلي سبيلها، المهم أنت عارف ايش لازم تعمل.

شكرها جدا، ومن فوره أمر مرافقه بالتوجه لمقر الأمن الداخلي، قسم الأخوات .

انشغلت الناس بالحدث، ومن ثم بتبعاته، فمن ضرب ،انشغل أهله بعلاجه، ومن أعتقل، انتظر ذووه الإفراج عنه، ومن راجع للتحقيق، عاد بعد أن عاش أهله على نار ساعات طويلة ،أما الفتيات، فإن الأهل صاروا أكثر حرصا على منعهن بعد ذلك من الخروج من البيت دون أن يعرفوا إلى أين هن ذاهبات، أما الشيخ أبو حفص، فقد شعر بأن السماء كان يمكن أن تسقط على رأسه، فينهار كل ما بناه خلال السنتين الأخيرتين، بسبب ما عدّه طيش أو كثر دلال لابنته الوحيدة، ولولا الأخت إيمان، لكان تعرض لانتكاسة حقيقية، أما وقد غطت على الأمر إيمان، فيما الشيخ أبو

عمر، لم يعرف بأن من طلب منه أن يخلي سبيلها هي ابنته، لذا فقد عقد العزم على فعل شيئين معا: الأول، أن يقدم هدية لإيمان، وأن يعزمها لبيته، بحجة أن تتعرف على ابنته التي لن تنسى لها ذلك الجميل طالما بقيت على قيد الحياة، وحتى يمهد بذلك لها لتكون واحدة من العائلة، وقد ظن بأن هذا ما تسعى له إيمان، أما الأمر الثاني، فكان أن اتخذ قرارا بداخله ،أن يستغل الظرف، وفدوى الآن ضعيفة، ليقنعها بالزواج من الدكتور محمد.

42

سار في شارع أبي بكر الصديق باتجاه الغرب، إلى أن وصل لآخره، فسار مع شارع الرشيد الموازي لشاطيء البحر باتجاه الشمال، يشاهد لوحة ولا أجمل، حيث بحر خانيونس الساحر على شماله، وما كان يسمى بغوش قطيف، حيث المواصي التي كانت أروع أرض تزرع فيها

الكرمة والخضار، على يمينه، الأفق الأزرق فوق رأسه والهواء العليل يملأ رئتيه، تجاوز شارع 5، ثم شارع البحر، ثم المطاحن، وظل يسير في شارع الرشيد، إلى أن أقترب من شارع الشهداء، بعد أن سار نحو سبعة عشر كيلومترا ،وجد الحاجز أمامه، يوقفه، فتوقف فورا .

اقترب منه الشرطي، وسأله عن رخصه، ناوله إياها، دقق بها ،وحين وجد أنها كلها سارية المفعول، رخصة السيارة والتأمين ورخصة القيادة، سأله عن هويته، أخذها منه وذهب لشباك المكتب الذي يقع وراء الحاجز، وعاد إليه، سأله عن إسمه، وعن وجهته، ثم سأله، إن كان ذاهبا للمشاركة في الشغب الشبابي ،وحين رد بالنفي، سأله سؤالا، رآه غريبا:

- يا نبيل، مش هذا هو اسمك، أنت فتح وألا حماس؟رد قائلا:

- أنا لا فتح ولا حماس.

قال ضابط الصف:

- فهمنا انكو بتخافوا تقولوا انكو فتح، طيب ليش أنت مش حماس؟ ما بتتشرف يعني؟رد:

- لما صار اللي صار، كان عمري يا دوب تلاتعشر سنة، وهيو مضى اربعتعشر سنة قضيتها في المدرسة والجامعة، وأنا بجري ورا لقمة الخبز.

ناوله هويته، بعد أن اتضح إنه ليس مطلوبا، وقال له: ارجع ممنوع دخول المخيم، ولا حتى السفر لغزة، يلا ارجع لمطرح ما جيت، وأوعك تاخد حدا مضروب ولا شارد، وألا دمه نازل بحجة إسعافه .

43

مرت ساعتان وأم نبيل تحاول الاتصال على ابنها، دون جدوى، ما أن تضغط على رقمه المخزن في جهازها المحمول ،حتى ينطلق الصوت المسجل بالقول: لا يمكن إتمام هذه المكالمة، حتى انشغل بالها وازداد وجيب قلبها، يراقب زوجها محاولاتها ويقوم بتهدئتها، وهو بداخله قلق أيضا، ويقول:

- يا بنت الحلال أهدي، ابنك داير على رزقه، ما إله بالحكي الفاضي، هي بس الشبكة كلها اليوم واقعة، وبعدين تلاقي إنه فضي شحن تلفونه، واحتمال كمان الطرق كلها حواجز، وكل مشوار بياخد منه ساعة وألا أكتر.

ترد بالقول:

- طيب لو فضي تلفونه من الشحن، كان شحنه بكهربة السيارة، ولو ما في اشي، كان هو اتصل علينا يطمنا، مهو عارف إنه الدنيا مشقلبة اليوم، وكل الناس قلقانه على

أولادها . اسمع ما معك تلفون حدا من أصحابه تتصل عليه .

يفطن لحل، فيجيبها:

- استني خليني أشوف مين منهم تلفونه مخزن عندي.

ويبدأ بالبحث في هاتفه، ثم يحاول الاتصال، وما من فائدة ،الرقم لم يشبك معه، ثم تحدث مع رقم وهمي، وقال على مسمعها ليطمئنها:

- مرحبا عمي، شفت نبيل اليوم؟ آه طبعا قلقانين عليه، خاصة أمه، اها من نص ساعة، شفته ع الطريق وقال لك إنه اليوم ما في شغل وهيو مروح؟ الله يبشرك بالخير عمي، مع السلامة.

هدأت قليلا، ثم قالت:

- من نص ساعة شافه وقال له هيو مروح، طيب وليش ما وصل لهلقيت، أي لو إنه شافه في غزة كان صار واصل البيت ،أبو نبيل ما معك تلفون ولا وحدة من البنات اللي بياخدهم الجامعة لنسألها؟

- أي هو اليوم في جامعة، مش انت معك رقم فدوى، بلاش تتصلي عليها، بعدين تقلق هي كمان، اهدي بالله عليك، وإن شاء الله، هي غمضة عين وتلاقيه قدامك.

سارعت على الفور، بالضغط على رقم فدوى، لكن دون فائدة، فلم ينجح الأتصال .

44

حين وصل مقر التحقيق، استقبلته إيمان بكل ترحاب ،واقتربت منه، استنشق رائحة عطرها، فكاد أن يغمى عليه، جذبه عطرها حتى شعر برغبة في أن يحضنها، قالت له:

- تفضل من هنا يا شيخنا.

سار وراءها، بعد أن طلب من مرافقه أن يبقى مكانه خارج المكتب، رأت الغضب يملأ صدره، والشرر يكاد يخرج من عينيه، وقد شعرت حين اقتربت منه سخونة أنفاسه، وفي الدهليز استحلفته بالله، أن لا يكسر بخاطر البنت، فلا يضربها أو يوبخها ،وعدها على مضض. وحين

وصلا، أشارت لفدوى أن تأتي ،فجاءت، لم يقل أحدهما شيئا، فبادرت إيمان إلى القول:

- الحمد لله ع سلامتك أخت فدوى، سعيدة إني تعرفت عليك.

ازداد إعجاب الشيخ بالمنقبة، فخاطب بنته قائلا:

- بوسي ايد خالتك، لولاها كان أتبهدل حالنا، وأنفضحنا.

ثم خاطبها قائلا:

- طول عمري ما بنسى لك هالمعروف، وأول شي لازم تشرفينا، تتغدي عنا، ونقوم بالواجب، ولو إنه واجبك كبير كتير. كأنها كانت تنتظر هذه الدعوة، فقالت على الفور:

- بيشرفني، وأنا من هاللحظة، باعتبر حالي أختها الكبيرة لفدوى، إذا بتقبلني أكون اختها .

تعانقت المرأتان، وسلم الشيخ على المرأة التي بدأت تدخل قلبه وعقله، وغادر هو وابنته.

لم تنبس فدوى ببنت شفة، كذلك لم يقل أبوها شيئا، حتى وصلا البيت، وما أن دخلا، وأغلق باب الدار، حتى رفع يده ،وبكل ما في نفسه من غضب هوى عليها يصفعها، حتى ظنت أن رأسها قد أنخلع من جسدها، لم تتمالك نفسها، حتى وجدت نفسها تركض بعيدا عنه، وتدخل غرفتها وتغلق الباب، وكان خيرا أن فعلت، ذلك أن إغلاقها الباب دونه قد منعه من مواصلة ضربها، وأخذت تبكي بحرقة، أما هو فقد دق على باب غرفتها عدة مرات، يطالبها بفتحه، وحين لم تفعل، قال:

- طيب ماشي، خليك مسكرة ع حالك، حسابك لسة ما خلص .

وذهب للمطبخ، اعد لنفسه كوبا من الشاي، ثم خرج.

45

بينما السيدة صبحية تفرك يديها قلقا، وأبو نبيل يدخن سيجارته ويلاعبها بين أصابعه، دخل نبيل، وما أن رأته أمه حتى ركضت صوبه واحتضنته وهي تبكي، ثم أطلقت

زغرودة عانقت عنان السماء، وسط دهشة الشاب، الذي سارع إلى سؤالهما، عن سبب ما هما فيه، لترد عليه أمه بانفعال:

- يعني مش عارف؟ صار إلنا 3 ساعات بنحاول نتصل عليك لنطمن، جوالك ما بيشبك، وأنت ما بتتصل، وأنت عارف الدنيا اليوم مقلوبة فوقاني تحتاني.

اقترب منه أبوه وقال له:

- الحمد لله ع سلامتك يا أبني، أقلقتنا عليك يابا، الله يسامحك، لو إنك بس اتصلت علينا وطمنتنا.

ثم تابع قائلا: أم نبيل، روحي اعملي لنا كبايتين شاي، وأنت تعال جنبي يابا، احكي لي ايش صار معك اليوم.

46

لأن قلب المؤمن دليله، كما يقولون، فإن إيمان لم تطمئن ،إلى ما تعهد به الشيخ أبو حفص لها، من أنه لن يكسر بخاطر ابنته فدوى، لذا وبعد أقل من ساعة من الزمن، مرت على ذهاب الشيخ وابنته، وجدت نفسها تفح

هاتفها المحمول، وتتصل بفدوى .ردت عليها الفتاة وهي تبكي، أدركت المنقبة بأن ما هجس به قلبها قد وقع، فما كان عليها إلا أن تواسي فدوى، فسألتها:

- مالك يا ست البنات، أبوك زعلك، مش هيك؟ طيب احك لي ايش اللي صار بالضبط.

تمالكت فدوى نفسها، وأخذت نفسا عميقا، وقالت:

- لا ما صار اشي، هو بس كف واحد، ولولا إني هربت للأوضة وسكرت ع حالي، كان الله أعلم ايش كان ممكن يعمل في.

عادت الأخت إيمان لسؤالها:

- طيب بسيطة، الحمد لله انك تصرفت، وظلت الأمور على قد هيك، وأنت وين هلقيت؟ردت فدوى:

- بالأوضة، مسكرة ع حالي، خايفة بأي وقت يجي، فكرت أهرب، أروح عند حدا من قرايب أمي بخانيونس، وألا بغزة، بس قلت أكيد الطريق لسة مسكرة وكلها حواجز.

على الفور، ردت عليها إيمان بالقول:

- أوعك تطلعي من البيت، حتى ما نزيد الطين بلّة، ويكبر الموضوع، خليك مسكرة عحالك بالأوضة، وأنا بظرف ساعة وحدة بس باكون عندك، أعطيني عنوان بيتكو يا الله بسرعة.

47

تواصلت الفتيات فيما بينهن، وتحدثت كل واحدة عما حدث معها في ذلك اليوم، وهن كن ذهبن معا، لكن بعد قليل من الوقت، ضاجت الدنيا، فافترقن، إلا لينا وفدوى فضل اللتين تلازم إحداهن الأخرى، كما لو كن توأما، وما أن بدأت عناصر الأمن تعتدي على الصحفيين، والشباب، حتى انسحبتا، وخرجتا من دائرة العراك، ومن حسن حظهن، وجدن سيارة على بعد أمتار تنتظر في شارع جانبي، طلب سائقها منهما ضعف الأجرة، فوافقتا بالطبع، أما سوزان، فحدث معها مثل ما حدث مع فدوى، جرى التحقيق

معها، ومن ثم أفرج عنها بعد توقيعها تعهدا، أقسمت فيه أن لا تعيد المشاركة في احتجاج أيا تكن الأسباب والدوافع، أما شيماء، فقد نفعها النقاب، حيث انضمت للتظاهرة المضادة التي نظمتها حماس تأييدا لها، وتنديدا برئيس السلطة .

جرى الاتفاق بينهن على أن يتابعن النشر في الجروب، وهذه المرة، كل من له قصة حدثت في ذلك اليوم، ويريد نشرها ،فليتفضل، ومن لديه صور، فليفعل أيضا، وهكذا بقيت الرابطة بين الفتيات قائمة، وبقي الجروب فعالا، لكن أهاليهن بدأن في فتح عيونهن عليهن، وصاروا أكثر تضييقا عليهن، يدققون في ساعات وجودهن خارج البيت، ويحاسبونهن على كل التفاصيل. وكان من جراء ذلك أن تضاعفت طاقتهن في العمل الألكتروني.

وبعد أيام دفعهن الفضول لتداول كل ما يتعلق بما قمن بتسميته بمدينة الأنفاق، أو غزة السفلى، إلى أن هتفت سوزان بالقول، بل "مقبرة الأحياء"، وحين سألتها لينا عما تقصد، قالت:

- مش الواحد لما يموت بيحفروا له قبر؟أجابتها بالقول:

- نعم صحيح ردت قائلة:

- ألا يقولون بأن هناك عالما للأموات تحت الأرض.

ردت:

- يقولون ويفتونواصلت الشرح سوزان قائلة: - هؤلاء لم يموتوا بعد، لكنهم حفروا مقبرتهم بأيديهم، وهم يعيشون تحت الأرض في حياة لا نعرف عنها شيئا، وكأنهم جن يرانا ويعرف ما نفعل، أما نحن فلا نراهم ولا نعرف ماذا يفعلون .

وأضافت:

-تخيلوا معي، مقبرة الأموات فوق الأرض، كل قبر منها معروف صاحبه، أما مقبرة الأحياء فهي تحت الأرض، ولا أحد يعرف من فيها.

علقت فدوى إبراهيم بالقول:

- أنا مع إطلاق هذا العنوان على حلقة الحوار مع متابعي الجروب، لكني مع تعديل المحتوى، فنحن الأحياء الذين يعيشون في المقبرة، مدينتا صارت مقبرة بالحصار وبالتزمت والفقر والقهر، خاصة لنا نحن النساء المتعلمات المثقفات ،اللواتي تفتحت عقولنا وقلوبنا، وما عدنا قططا مغمضة كما أرادونا دائما، فنحن نتواصل عبر الانترنت مع كل العالم، لكنه عالم حولنا، لا نستطيع أن نلمسه بأصابعنا .

48

دخل الشيخ المنزل، بعد العشاء بوقت، حيث كانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء، ومجرد أن دخل وأغلق باب الدار وراءه ،أخذ ينادي بأعلى صوته:

- أنت يا مقصوفة الرقبة، ولك يا فدوى، لساتك مسكرة ع حالك الأوضة، طيب اطلعي جهزي لي العشا، مش بكفيك اللي عملتيه، كمان صاحبة حق، أطلعي ولي، وألا قسما عظما، لأكسر الباب فوق راسك، وأقول لا أنت بنتي ولا بعرفك، افتحي ولي،،،

فوجيء بأن باب الغرفة ينفتح، وتخرج منه امرأة منقبة، تغلق باب الغرفة وراءها.

أصابته الدهشة، ولم يفكر فيما يقول:

- ايش؟ تحجبتي؟ طيب الله يهديك يابا.

ردت عليه بالقول: ما عرفتني يا شيخ؟ أنا إيمان . روق يا رجل ،مالي شايفة فيك شيئا من جاهلية عمر، ناقص توئد البنت؟ أنا باحضر لك العشا، بس يا حوف عليك يا شيخ، ما كنت وعدتني انك ما تكسر بخاطرها؟هدأ كثيرا، وقال:

- لكن هو اللي عملته بنتي كان إشي قليل؟

ردت بكل ثقة:

- ما كفرت، ولا ارتكبت الخطيئة، وأنت عارف إنه حتى في قيادات بحماس قالت، إنه الشباب معهم حق، وما طلعوا ضدنا.

رد قائلا:

- صحيح، لكن كانت راح تصير فوضى، تستغلها سلطة الكفر في رام الله، والصهاينة، والولاد مش فاهمين.

وافقته القول:

- طيب وبنتك هي المسئول يعني عن اللي صار؟قال:

- لا هي بنتي ايش محلها من الإع راب، بس لو الحركة عرفت، كان قلت قيمتي، وهزت مكانتي قالت له:

- بهذه معك حق، وما صار إلا الخير، وربك جعلها سبب خير إن شاء، وعرفتنا ببعض مرة تانية . استهدي بالله، أنا صرت أختها الكبيرة لفدوى، ومن اليوم بدير بالي عليها، وأنت لا تكون لك فكرة ولا تقلق.

قال:

- أنا أصلا فكرت اتصل بالدكتور محمد، وأقول له إني موافق أزوجه إياها.

قالت:

- يا سلام عليك أنت وإياها، وهي لولا إني لحقتها كانتبدها تهرب عند أي حدا، وأنت بدك ترميها بعيد عنك، روح ارتاح شوي، عبال ما نعمل العشاء، أنا بياته اليوم عندكو خلاص مظلش وقت لأروح .

49

أعدت السيدة صبحية طعام العشاء، بينما عاد أبو نبيل من الخارج، محضرا معه طبقا من الحلوى، وبينما هم على مائدة الطعام، سألته زوجته، إن كان إبراهيم الدفش قد رد له الخبر ،فأجابها بأنه حين طلب منه موعدا ليلتقي به، وليطلب منه يد أبنته لأبنه، رفض بشدة أن يكون الموعد يوم الجمعة، وكأنه كان يعرف بأن الدنيا راح تتشقلب فوقاني تحتاني بهاليوم ،المهم، خلينا نتعشى ونتحلى، وبكرة باحكي معه، وهيك بنكون تعدينا يوم الجمعة، تقول انه بيؤم الناس بالصلاة يوم الجمعة ،وألا ليكون فعلا بيؤم الناس، أنا ما بشوفه هالزلمة كتير، باعرفه بالوجه، وفي سلام مرحبا، مش صحاب، لأنه كمان إحنا جيران بس مش الباب في الباب يعني، وكل اللي باعرفه عنه أنه ع باب الله، مش درويش ولا أهبل ولا حتى طيب، يعني ما اله شغلة ولا عمله، كيف بيلقط رزقه، ما باعرف، ولو كنت سألت قرايبيوألا صحابي، وألا شاورتهم، ما كان واحد فيهم نصحني أناسبه ،المهم النهار إله عينين، بكرة باحكي معه وباشوفه.

كانت السيدة صبحية تستمع لزوجها، الذي بدا وكأنه يخاطب نفسه، وتضع يدها على خدها، وتنظر لنبيل، الذي كان هو الآخر منصتا لأبيه، ربما ليقف عند حدود رأيه في مصاهرة الرجل، أو أنه رغب في أن يقف عند حدود حماس أبيه لزواجه من فدوى بالذات، هو متأكد من أن أباه وأمه أيضا يرغبان جدا بزواجه ،واليوم قبل الغد، لكن من فدوى؟ أكيد أن أمه ليست متحمسة لزواجه من فدوى، كما لو كان الأمر مع ابنة أختها، وأكيد أيضا بأن حماس أبيه لزواجه من فدوى ليس بحماس كان ممكنا أن يكون كبيرا، لو كانت العروس ابنة أخيه .

بعد أن انتهى أبو نبيل من حديثه، اقترحت زوجته قائلة:

- وليش لبكرة لتتصل بالراجل، ما تتصل فيه هلقيت ع أساس تلتقوا بكرة؟

لم يعارض الفكرة، وقال:

- هو ممكن، لأنه راح نتفق على موعد راح يكون بكرة أو بعده، بديش الزلمة يحس إنه إحنا مكروبين عليهم، إحنا يا دوب ليلة السبت، يعني بلا ما يقول، هو ما صدق غابت شمس يوم الجمعة واتصل؟

قالت مشجعة له:

- يا رجل لا تظلك تمطمط بالموضوع، اضرب الحديد وهوساخن، بالليل هلقيت بيكون اتعشى وبده ينام، بكرة ما بتعرف ايمتى يكون فاضي ليرد عليك، وراح ساعتها يقول لك بكرة ولا بعدة، وتمط، اتصل هالحين، وراح يعمل حسابه يلاقيك بكرة.

50

أبو نبيل يفرك يديه، وهو جالس على كرسي في المقهى الشاطئي، يخاطب الحاج سمير قائلا:

- يعني وبعدين في وقفة هالحال؟ وقال إنهم انسحبوا من غزة، عليم الله إنهم مسيطرين على القطاع أكتر من الأول.

يوافقه زميله بالقول:

- كلامك مزبوط يا محترم، عليم الله لما كانوا عنا، كنا نسرح ونمرح، ونروح لجواة تل أبيب وإحنا مطمنين،

وماكلين وشاربين ما أحلانا، يا رجل كل شوي، مساحة الصيد 6 ميل ،9 ميل ،3 ميل ،12 ميل، أي ايش بدها تعمل، بنلقط سردينة قاعدين بحجم حبة الفستق، ما بسمحولنا نعدي الصخرات اللي ع الشط.

يلتقط ابو نبيل الكلام من جليسه ويكمل:

- وهو ايش فيه قطاع غزة كله، ومن وين بدهم ياكلوا الثنينمليون بني آدم، غير شوية أرض يا دوبك ظلت تزرع شوية خضرة حوالين خانيونيس والمنطقة الشرقية، وصيد السمك.

يقول أبو العبد:

- اكتر من أربع آلاف صياد، ومراكبهم واللي بيشتغلوا معهم حوالي 50 ألف عيلة، يعني تقريبا ربع سكان القطاع، عايشة من وراء عالفلوكات ومراكب الصيد، أي والله لو بنصيد عصافير كان وفت معنا أكتر، الله وكيلك إسرائيل بتلعب مع حماس استغماية ،وإحنا واقعين بالنص.

يرد أبو نبيل بالقول:

- معروفة كل القصة، بس إحنا ايش نعمل، صار إلها الناس صابرة ومستنية فرج الله خمستعشر سنة، يا دوب

فرحنا بالسلطة ،شوية بلشت انتفاضة الأقصى، وهات يا حرب، لما تهدمت البيوت وراحوا أحلى شباب، وهو مات أبو عمار من هان، وقاموا انسحبوا من غزة من هان، هللنا وفرحنا، وبين يوم وليلة، انصرفوا لا مستوطن ولا جندي، قلنا تحررنا وصرنا دولة، مافيش أقل من سنتين زمان ،وقامت حرب الأخوة الأعداء، تقول مدعية علينا دعوة.

يقاطعه قائلا:

- لا ياخو، كله مخطط له، إسرائيل قبل ما تنسحب من غزة ،كانت مرتبة كل اشي، وكانت عارفة ايش تاركة وراها، وطلعت من غزة عشان تستفرد بالضفة، نسيت لما كانوا يدوروا على حداياخد غزة، ويتمنوا إنهم يرموها في البحر، اذكرك ايش كان يقولرابين، لما كنا شباب، قبل ثلاثين سنة، متذكر والا نسيت ياخو؟يشعر أبو نبيل بالملل، فيقول لصاحبه، لا تفتح جروحنا ،وسيبك من كل هالحكي اللي بيوجع الراس وبفور الدم، وتعال نلعب لنا دق طاولة، والله أنا بديت أفكر في إني أشوف لي شغل تاني غير الصيد اللي مش جايب همه.

51

لأن الحاجة أم الاختراع، كما يقولون، فإنهم في اليابان لمواجهة الزلازل التي تظهر عندهم باستمرار لجأوا إلى تشييد المنازل الخفيفة، من الأشجار، وقللوا من الخرسانة بأكبر قدر ممكن، وقبل قرون مضت، كان الرومان البيزنطيون يقيمون القلاع والحصون على أعلى قمم الجبال، ويحيطونها بالأسوار الشاهقة والقوية المشيدة من الحجر الصخري، وكما بنى الأنباط مدينة البتراء في داخل الجبل، حتى تكون حصينة ومنيعة ومحل ثقة تجارة القوافل، كذلك فعل المماليك والأيوبيون، حين أحاطوا مدن القاهرة ودمشق والقدس بالأسوار لرد الغزاة والمعتدين ،وفي مواجهة عدو متفوق عددا وعدة وعتادا، لجأ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى حفر الخندق.

وحيث أن قطاع غزة المكتظ بالسكان، والذي ثلثا سكانهمهاجرون من قرى ومدن الساحل الفلسطيني المحتل منذ عام1948، والذي لا يحتوي على أكثر من 360 كيلو مترا مربعا ،بطول في المتوسط يبلغ نحو خمسين

كيلومترا ما بين رفح وبيت حانون، وعرض يبلغ في المتوسط نحو خمسة كيلومترات فقط ،يضيق في الشمال، ويتسع نسبيا في خانيونس، ولأن إسرائيل ساعدت في وصول حماس لاحتلال المجلس التشريعي الثاني عام 2006، ومن ثم شجعت على حدوث الانقسام، بل وحتى أنها لم تخف دورها في ذلك، فإن حماس أظهرت ذكاءً تزايد مع مرور الوقت في أكثر من منحى ومستوى .

أدركت أولا بأنه إن كانت لإسرائيل في لحظة ما مصلحة في صعودها لتنافس فتح، لدرجة أن تساعدها بشكل أو بآخر في السيطرة على قطاع غزة، فإنه يجب عليها أن تحافظ على ما حققته، وأن تقوى لدرجة أن تعجز إسرائيل، حين تنتفي مصلحتها في قوة حماس وسيطرتها على غزة، عن إسقاطها، وهي تعرف بأن إسرائيل لا تسعى سوى إلى مصلحتها هي، وإن كانت لها مصلحة في تقوية حماس في لحظة، فإنها لن تتردد في لحظة تالية تنتفي فيها هذه المصلحة في أن تنقلب ضدها، وأن تقوم بما من شأنه

إسقاط حماس، هذا لو بقيت الحركة تعتمد على المصلحة الإسرائيلية في بقائها كحاكم لقطاع غزة.

ثم سعت ثانيا، إلى تقوية قدرتها العسكرية دون الاعتماد علىحلفاء إسرائيل، وفيما هي اهتمت ببناء قدرتها العسكرية لمنعإسرائيل في لحظة انتفاء مصلحتها بوجود حماس في غزة، من جهة ومن جهة ثانية حتى تبقى قادرة على السيطرة على شعب يعيش ظروفا بالغة القسوة، ولهذا فقد تركته يدير شؤونه في الجانب الاقتصادي بما يمكنه أن يبقي على أوده، وهي لم تلاحق موظفي السلطة الذين ظلوا يتلقون رواتبهم من رام الله، بل إنها كانت تساندهم في مطالباتهم حين يفكر بعض مسئولي حكومات فتح، في قطع تلك الرواتب أو الخصم منها، في أكثر من مناسبة.

ولأن قطاع غزة ضيق أفقيا، وهو بمساحة تكفي لعشر سكانه بالعيش، فما يزيد الطين بلة، هو أن القطاع معزول عن العالم الخارجي، ولو أنه مرتبط بعمق جغرافي، بالضفة الغربية مثلا ،لكان الاكتظاظ طبيعيا، كما هو حال المئات من المدن في العالم ،لذا فقد تم اللجوء للتمدد الرأسي بإقامة الأبراج السكنية، ما أن استلمت السلطة الفلسطينية زمام الحكم الذاتي عام 1994، وبعد ذلك بسنوات وحين

فرضت إسرائيل الحصار الكامل والشامل منذ عام 2006، تفتق العقل المقاوم عن حفر الأنفاق التجارية عبر مدينتي رفح الفلسطينية ورفح المصرية، التي ربطت غزة بالاقتصاد المصري.

وبعد أن اعتمدت حماس على الصواريخ كقوة ردع للآلةالعسكرية الإسرائيلية، بدأت في حفر الأنفاق العسكرية لتحقيقهدفين معا، هما: اختباء قادتها العسكريين المستهدفين بالاغتيال من قبل إسرائيل، وتخزين الصواريخ والذخائر والأسلحة، ثم لاستخدامها في الدفاع في حال شنت إسرائيل هجوما بريا، وفي الهجوم بمحاولة التسلل للعمق الأسرائيلي.

ولأن أرض غزة، هي ما بين رملية كلما اقتربنا من البحر ،وطينية كلما اقتربنا من الحدود الشرقية، فإن حفر الأنفاق يكون سهلا، بينما تحتاج إلى دعامات خشبية وإسمنتية لصد احتمالات الانهيار، فهي ليست كأنفاق حزب الله التي يحفرها في ارض جبلية صخرية، وهكذا تحولت مع الوقت أنفاق غزة لتجاوز مأزق ضيق المساحة الجغرافية، حتى

ربما نجد أننا قد صرنا بعد سنوات، أمام مدن تحت الأرض، وكما تم اللجوء للتوسع الرأسي بحيث كان بناء برج سكني على مساحة 500 متر مربع ،يعني إسكان عشر عائلات أو أكثر، بينما كان بناء بيت من قبل على هذه المساحة يكفي عائلة واحدة فقط.

صار حفر الأنفاق تحت الأرض، يقود إلى تشييد المدن والشوارع والأسواق، تماما كما لجأت الكثير من الشركات لتشييد مواقف السيارات بعدة طبقات تحت الأرض، كما هو حال كراج

ميدان التحرير بالقاهرة، وهذا كله ناجم عن عقلية المقاومة، التيترفض أن ترفع الراية البيضاء، مهما اشتد الحصار وطال .

استلم الشيخ أبو حفص مكتبه تحت الأرض، وصار كل يوم يخرج من البيت صباحا، ثم يتوجه لعمله، لذا صار معظم الوقت لا يمكن الوصول لهاتفه المحمول، وهذا أيضا صار مهما بالنسبة له، بل أنه قام بتغيير رقمه على الفور، حتى لا يصل إليه أي أحد بسهولة، فقد بدأ يغدو مهما، ليس إزاء نفسه فقط، ولكن عند أمراء الحركة، الأمنيين خاصة.

كان الشيخ كلما نزل مدينة الأنفاق، أو مقبرة الأحياء، كما أطلق عليها بعض الإعلاميين، يرتدى العمامة السوداء، حتى ظن البعض من أتباعه ومناصريه بأنه قد تشيع، والحقيقة أن الثقافة الشيعية قد تسللت لغزة، عبر أكثر من سبيل، بما في ذلك بعض أوساط حماس الذين كانوا أيام المجمع يقولون عنهم "الرافضة"، أما اليوم فهم حلفاء

،

الجهاد، والقسام له علاقات قوية جدا بإيران، حتى أن القيادة السياسية أيام خالد مشعل ،وقبل الربيع العربي، كانت تعتبر ضمن محور الممانعة الذي كل مكوناته شيعية وعلوية، أما حين يكون بين الناس، في المسجد أو الشارع، أو في المناسبات المختلفة، فكان يرتدي كل شيءابيض حتى يظهر كما لو كان حمامة سلام !

حاول أبو نبيل أن يتصل به مرارا وتكرارا، لكن دون جدوى ،وحين صار الوقت ظهرا، اتصلت به زوجته لتسأله إن كان اتفق مع إبراهيم الدفش على موعد اللقاء، اخبرها بأنه بات عاجزا عن الاتصال به، عاتبته قائلة:

- شايف اللي ما بيسمع كلام مرته، ايش بيصير فيه، مش قلت لك خير البر عاجله، اتصل بالزلمة واقطع العرق وسيح دمه، ما رديت علي، طيب ايش بدنا نعمل هلقيت؟رد عليها بالقول:

- باتصل حالا على نبيل، خليه يحكي مع البنت، تتصل بابوها وتاخد لنا منه الموعد، محلولة يعني، يا أم نبيل، أنت ما صدقت بدك تشمتي في؟ قالت:

- اشتمت فيك بعد كل هالعمر، له يا زوجي يا حبيبي، على كل حال الله يسامحك، طيب، برضك كلامك مزبوط، اتصل بابنك واللي فيه الخير يجيبه ربنا .

قال لها:

- والنعم بالله، طيب يا الله مع السلامة، خليني قبل ما أنسى أو انشغل أتصل بابنك يتصل بالبنت، ويحكي لها إذا في اتصال بينها وبين أبوها، تحكي له يفتح جواله، لأتصل فيه، أو هو يتصل في.

ثم دق على رقم ابنه، فسمع هدير السيارة وصوت الريح ،لحظة وخاطبه ابنه بالقول:

- أهلا ياباء، سلامات، أأمرني يا غالي، في اشي؟رد عليه والده بقوله:

،

- عارف انك بتسوق وما بدي آخد من وقتك كتير، أنا صار لي من الصبح بحاول اتصل بأبو البنت، وما في فايدة، يا ريتك يابا تتصل عليها وتخبرها، تخلي أبوها يفتح جواله، أو هو يتصل في ونخلص من هالقصة.

بحماس رد الشاب:

- فورا يابا، دقيقتين وبرجع لك.

اقفل الخط مع والده، واتصل بفدوى، ردت عليه بلهفة ،وكانت تبكي، استغرب وعرف بأن أمرا سيئا حدث معها، فسألها على الفور:

- مالك؟ فكرت إني راح ألاقيك مبسوطة أول ما تشوفيرقمي أكيد صار معك اشيء مش منيح.

ردت عليه وهي تمسح دموعها وتهدأ:

- ما تاخد في بالك بعدين بحكي لك، المهم أنت بالشغل ،ايش في طيب، ليش متصل؟

لم يكن بمقدوره أن يطيل المكالمة رغم رغبته، حتى لا يكون ثقيلا على الركاب، فقال:

- ابوي من الصبح بيحاول يتصل على أبوك، وجواله ما بيشبك، وبده إياه ضروري عشان يطلب ايدك منه، حاولي تتصلي عليه وتحكي له يفتح تلفونه أو هو يتصل على أبوي، يا الله سلام .

قالت له على الفور:

- استنى وين سلام، ابوي ما بفتحش جواله قبل وقت الغداء ،ساعتها إما بقول حضري الغدا هيني جاي، أو إنه راح يتغدى برة ،أنا كمان ما بيشبك جواله معي، لما يتصل بحكي له، وساعتها بخبرك . هلا اوكي سلام.

أغلقت الخط، فابتسم من قلبه، على رقة وذكاء خطيبته .

،

كانت إيمان تستمع لمكالمة فدوى مع نبيل، وفهمت أن بينهما شيئا خاصا، وقد دفعها الفضول لتعرف ما هو هذا الذي بين فدوى ومن تكلمت معه للتو، ومجرد أن رأت رقمه يرن حتبكت فسألتها:

- في اشي فدوى؟قالت لها فدوى وهي تبتسم:

- هذا شب محترم كتير، أبوه بده يتصل بابوي ليطلب ايدي منه.

شعرت إيمان بارتياح حين سمعت هذا، وقالت:

- الله يجيب اللي فيه الخير، طيب هيك انحلت، ابوك كان بيهدد ليلة امبارح بأنه راح يتصل بالدكتور محمد ويخبره إنه موافق يزوجك منه.

استشاطت فدوى غضبا، وقالت:

- بالله هو هيك قال، والله كنت بانتحر ولا بتزوج الدكتور محمد.

ردت إيمان بالقول:

- لا تهكلي هم، ما راح يصير إلا اللي بدك إياه، هيك انحلت أصلا، مش أنت موافقة على هذا الشب؟ وما بدك الدكتور محمد؟ردت عليها قائلة:

- آه

قالت إيمان: خلص نعمل استخارة، ولما أبوك يجي أنا بوفقه متل ما بدك، بس إن شاء الله الاستخارة تقول إلنا إنه الشب ابنحلال وتشجعنا على إنه نتمم لك معه على خير.

بعد آذان الظهر بقليل، رن هاتف فدوى، وكان المتصل هو أبوها بالطبع، سألها إن كانت ضيفتهم قد عادت لبيتها أم أنها ما زالت عندهم، وحين أخبرته بأنها ما زالت معها في بيتهم، شعر باغتباط وقال لأبنته:

- الحمد لله، هيك ريحتنا من الواجب اللي كان راح يظل فوق أكتافي، لحد ما تتغدى عنا، اسمعي يابا، لا تعملي اشي أنا راح أجيب غدا معي، مشاوي وسمك مشكل، وفواكة وعصائر ،انتي بس جهزي السلطات وخلص.

قالت له:

،

- استنى يابا، اتصلوا علي دار أبو نبيل، وحكوا لي أنهم من الصبح بيحاولوا يتصلوا فيك، وجوالك ما بيشبك، الزلمة بده يتفق معك يقابلك.

رد عليها قائلا:

- طيب أنا غيرت رقمي وما بديش حدا يعرفه، أنت اتصلي عليهم وخبريهم إني لما أوصل البيت، بعد ساعة زمن باتصل عليهم.

أجابته بالقول:

- متل ما تشوف يابا حاضر، هلقيت باتصل عليهم وبخبرهم.

ما أن انتهت مكالمتها مع أبيها، حتى سارعت فدوى للاتصال بنبيل، ومجرد أن فتح الخط، حتى بدا عليها الهيام، وإيمان تراقبها وهي تبتسم، أما نبيل، فقد نسي أن يسألها عن أبيها، وكان يتوقع المكالمة في هذا الوقت، بل أوقف السيارة جانبا، وصار يهمس لها، يسألها عن أحوالها، وإن كانت تحبه كما يحبها، ثم صار يسألها عما تخطط له في مستقبل حياتهما معا، كم ولدا تريد أن تنجب، وهي لا ترد، بل يحمر وجهها خجلا، وبعد ربع ساعة تقريبا، قاطعته قائلة:

- أنا عندي ضيوف، أبويا اتصل، وبعد ساعة زمن بيكون في البيت، وهو راح يتصل على أبوك، ويتفق معه ايمتى ووين يقابله.

تفاجأ بأن هناك ضيوفا عندها، فدفعه الفضول لسؤالها، عمن يكونون، ضحكت وقالت:

- هي ضيفة وحدة، بس نزلت علينا من السما، بعدين بتعرف مين هي، يا الله روح شوف شغلك وخبر أبوك، سلام.

دق الشيخ جرس باب بيته، قبل أن يفتحه، حتى تأخذ المنقبة حذرها، وفتح الباب بهدوء، ثم قال بأعلى صوته:

- يا رب يا ساتر، خدوا طريق يابا، خش يا عبد الله.

وكان عبد الله محملا بأطباق المشاوي والسمك، والفاكهة والعصائر، قاده إلى المطبخ، الذي كان قريبا من باب المنزل الخارجي، فوضع الشاب ما كان يحمله على باب المطبخ، وهم بالخروج، ناوله الشيخ نقودا في يده، وطلب منه، أن يذهب ،وحين يتصل به، يجيء إليه.

خرجت فدوى وكانت هي وإيمان تراقبان من فتحة باب غرفة فدوى المشهد داخل المنزل، وحيت أباها، الذي دخل غرفته، فيما قامت الفتاة والمرأة بتجهيز المائدة، وهكذا تناولوا الطعام معا ،وحين انتهوا وشربوا العصائر وبدأوا بأكل الفاكهة، سألت فدوى:

- بدك تتصل بابو نبيل هلقيت؟رد بالقول:

- اتصلي من تلفونك، خليني أشوف ايش بده هذا التاني.

ابتسمت الفتاة وضيفتها، ففهم أنهما تعرفان ماذا يريد.

سألهما، فقالت إيمان:

- أظن والعلم عند الله، هذول الناس خطابين.

يبدو كأنه تفاجأ، فسأل:

- خطابين؟ في مين؟قالت المرأة:

- في مين يعني؟ بدهم يخطبوني منك؟ في فدوى أنفعل حين سمع هذا، وقال:

- أيش وأنا اللي أديت كلمة للدكتور محمد؟ لتكوني يابا ،بدك إياه هذا الشب ابن أبو نبيل؟ردت عنها إيمان قائلة:

- أنت ليش تسرعت وقلت للدكتور انك موافق؟ هيك حطيت حالك في مشكلة.

رد مستنكرا:

- لا مشكلة ولا اشي، الرجل تبعنا، ومحترم ومقامه عالي ،وكله حلال .

ردت عليه:

- لكن البنت ما بدهاش إياه، هو أكبر منك وعنده زوجة وأولاد، من حقها تختار شاب من عمرها.

وحتى تنهي الحوار، ولا تبقيه في ضائقة يدافع عن نفسه بتوتر ،قالت:

- إذا على الدكتور محمد، وانك أعطيته كلمة، خلي هالموضوع علي، أنا بخلصك من الحرج . وتابعت قائلة: هو أنت بيهمك سعادة بنتك ولا اشي تاني؟هدأ قليلا، وقال:

اشي تاني زي ايش، لا تلمحي يا ست إيمان، أنا طبعا كل اللي بيهمني سعادة بنتي.

ردت على الفور:

- خلص هيك اتفقنا، مش مختلفين، اتصل بابو نبيل، وقابله ،وتوكل على الله، إحنا عملنا استخارة، والدكتور محمد عندي أنا، براضيه.

قال مازحا: كمان اعملتوا استخارة، هذا متفقات علي، بعدين بأيش بتفكري أنت، كيف تراضي الدكتور محمد، ليكون بدك تتزوجيه أنت؟

فهمت أنه شعر بغيرة نحوها، فالتقطت الخيط وقالت:

- تعرف ما خطرت ببالي هذه، لكن هي فكرة.

قال بغضب وبسرعة:

- لا أوعك، أنا ما بوافقزادت دلالها قائلة:
- ليش الي عندك عريس أحسن منه؟رد دون تفكير:

- آه في، طولي بالك بس نشوف موضوع فدوى، بعدين الله يجيب لك اللي فيه الخير .

54

رتب نبيل أموره بحيث يكون وقت الغداء قريبا من البيت، وما أن وصل لآخر الخط، ونزل آخر راكب، حتى سارع إلى البيت ،ليس لأنه جائع وحسب، بل لسبب آخر، وقبل أن يصل البيت اتصل على أمه وسألها إن كانت تريد شيئا من الدكان، ثم قال لها بأنه بعد 5 دقائق سيكون في البيت .

ما أن وصل البيت حتى سلم على أمه وأبيه، ومن ثم سأله إن كان أبو فدوى قد أتصل به، وعلى مائدة الغداء، بدا كما لو أنه ينتظر على أحر من الجمر، فبين فينة وأخرى يواصل النظر إلى هاتفه، وكأنه حين تتصل عليه فدوى، لن يسمع جرس الهاتف.

مرت ساعة، وبقي نبيل في البيت لا يريد أن يغادر إلى عمله، فكر في أن يتصل هو بها، لكنه تردد، لأن أباه كان

بقربه ،وأمه كذلك ،ثم فجأة انطلق الهاتف يزغرد، كانت هي بالطبع، أخبرته بأن أباها يريد أن يكلم أباه، فناول الهاتف لأبيه بعد أن فتح "السبيكر"، حتى يسمع هو وأمه ما سيدور بين الرجلين من حديث.

خاطب أبو نبيل الدفش بكل لطف، وبعد أن اعتذر عن ما قد يبدو إلحاحا منه على الاتصال به، وذلك من أجل الترتيب لمقابلته، سأله الدفش كما لو كان يحقق معه:

- مش أنت سعيد البشوش صياد السمك، جارنا بعد حوالي
3 شوارع؟

رد عليه البشوش قائلا:

- آه أنا هو بشحمه ولحمه عالجه الدفش بسؤال آخر:

- طيب يا بشوش، قول لي من الآخر، أيش بدك؟تلعثم البشوش، وقال:

- هو طلبي مش حلو ولا من مقامك إني اطلبه بالتلفون ،واجبك أجي لحدك، ووين بتحب قاطعه الدفش بالقول:

- يا زلمة قول ايش بدك، هو أنت بدك تناسبني وألا أيش؟وكأن الجملة التي نطق بها الدفش اعتباطا، ومن باب الاستهزاء أو السخرية، قد حلت مشكلة للبشوش، فقال على الفور:

- آه والله يا خوي أبو فدوى، عشمي فيك كبير، وطالب القرب منك.

قال الدفش بغضب:

-مسميش أبو فدوى، أنا المهدي الشيخ الدكتور أبو حفص ،على كل حال، في مين بدك تناسبني يا بشوش، إن شاء الله؟رد عليه البشوش بكل عفوية:

- في بنتك المصون الآنسة فدوى لأبني المهندس نبيل.

صمت قليلا الدفش، فيما كانت المنقبة وابنته تتابعان، وتهزان رأسيهما، تشجعانه على المتابعة والقبول، فرد عليه قائلا:

- طيب، عادة الناس، يومين بشاور البنت وبسأل عليك الناس، وبرد لك خبر.

وما أن انتهى الشيخ من المكالمة حتى قامت إيمان باحتضان فدوى، وقبلتها وقالت لها:

- ألف مبروك حبيبتي.

فردت عليها الفتاة:

- الله يبارك فيك، عقبال عندك وغمزت بعينها تجاه أبيها الذي علق قائلا:

- خلص وافقتوا عني، ايش رايكو طيب انتو تتصلوا بالجماعة ،وتتفقوا معهم؟

ردت المنقبة عليه بالقول:

- أعوذ بالله يا شيخنا، هي العين تعلا ع الحاجب، الشورة شورتك والقولة قولتك، بس أنت بعضمة لسانك قلت للناس ،أشاور بنتي، وهيها بنتك قدامك شاورها طيب وخد رأيها.

ضحك وهاودها فسأل ابنته:

- فما هو رأيك يا أبنتي في من تقدم لك في التو واللحظة خاطبا؟قالت بخجل:

- اللي تشوفه يابا فرد:

- بلا وجع راس، أنا شايف إنه أتوكل على الله وأروح بكرة اقرأ الفاتحة مع الناس.

55

على الجانب الآخر، ما أن انتهى أبو نبيل من مكالمته مع الدفش، حتى أطلقت زوجته زغرودة حادة، ترددت أصداؤها في جنبات البيت، فسارع زوجها لسؤالها:

- انت ليش بتزغردي؟ هم الناس وافقوا؟

ردت:

- المكتوب باين من عنوانه يا زلمة، بس على قد ما البنت حلوة ومؤدبة، على قد ما باسمع إنه أبوها نكدي وكشر، والناس ابتدت تحكي عليه.

فوجيء نبيل فسألها:

- ايش بيحكوا عنه ياماقالت:

- انتو يا زلام طول نهاركو بالشغل، وما بتعرفوا ايش بيصير في البلد، هذا الدفش اللي كنا زمان من بعيد، وأهل الحارة بيعرفوا إنه حرامي جاج، صاير "قرن" عند حماس، بيؤم الناس في الصلاة، وقال ايش قائد ميداني ومجاهد كبير، لكن أعطل اشي بنسمعه عنه، إنه إله ايد في التحقيق

مع الناس، وبيشكوا فيه إنه تبع أمن داخلي، ما أنت عارف ما حدا بيعرفهم وهم بيضربوا ويحققوا، كله مغطي وجهه وراسه.

بعد أيام كانت عائلة أبو نبيل، المكونة منه وزوجته وأبنه ،يدقون باب منزل الشيخ إبراهيم، فيستقبلهم ببرود كعادة صار عليها، وفي حين دخلت السيدة أم نبيل إلى غرفة فدوى حيث كانت في انتظارها ومعها المنقبة إيمان، جلس نبيل وأبوه مع الشيخ في الصالون، فقرأوا الفاتحة على نية التوفيق، لتطلق أم نبيل زغرودتها، ثم تهاهي، ومن ثم تخرج بأطباق الحلويات التي جلبتها معها للرجال، ومن ثم تعود للنساء، بعد ذلك. خرجت النسوة الثلاث إلى عند الرجال وهن يضعن على رؤوسهن جميعا الأغطية، فجلست أم نبيل بين ابنها وخطيبته، حيث قامت بتلبيسها الشبكة التي أحضرتها لها معها، وهكذا صارت فدوى خطيبة نبيل، على سنة الله ورسوله وبنية التمام على الخير .

نشر الخبر على الجروب، وأول من عرفت به صديقاتها بالطبع، وأصدقاء نبيل، كذلك عرف به الصيادون، الذين

أجبروا أبا نبيل على شراء صينية بقلاوة وصينية كنافة نابلسية، حيث هجموا عليها وهم يدعون الله بأن يتمم للمهندس نبيل بن سعيد البشوش على خير، وأن يرزقه الخلف الصالح، البار، وأن يكون على شاكلة أبيه وجده لأبيه، وليس جده لأمه، وتضاحكوا، حيث غمزوا من قناة الشيخ، اللي كان "شلاتي"، وصار في عصر الأخوان "ولي"، شعر نبيل بالحرج فقال لهم:

- إن الله يهدي من يشاءفرد صياد خبيث:
- والمصاري تجر اجر كل مشته، والنفوذ والسلطة تغري كل مغرور.

56

بعد ذلك صارت فدوى مجرد أن تصل سيارة نبيل لبيتها، حتى تسارع إلى الصعود للمقعد الأمامي، وتجلس بجوار خطيبها ،وأول شيء تفعله هو أن تقوم بإزاحة المرآة الداخلية، التي عبرها يرى السائق الركاب الذين بالخلف، خاصة الذي يجلس وراءه مباشرة، وصار من الطبيعي حتى أن يراهما الناس، الصديقات الفتيات، أو حتى الجيران معا.

وفي يوم من الأيام، وبعد أن أوصل نبيل الفتيات لمنازلهن، قاد سيارته بناء على رغبة خطيبته إلى شاطيء البحر، حيث توقف ،ونزل منها، فذهب واشترى حبتي "بوظة"، مع كيسي شيبس ،وعلبتي عصير، وعاد وجلس وراء "ستيرنج" السيارة، وبدآ يأكلان البوظة في سعادة، وإذا بأمن الشاطيء، يقتحم عليهما سعادتهما، وبكل صلافة، يسأل أحد رجلي الأمن اللذين كانا معا:

- ايش بتعمل ولك أنت وهي؟رد نبيل بهدوء:

- قاعدين بنتأمل البحر، وبناكل بوظة، تفضل.

بغضب تابع رجل الأمن:

- بصفتكو ايش قاعدين منسجمين، هي أختك وألا مرتك؟بدأ نبيل يغضب فقال:

- لا أختي ولا مرتي.

وقبل أن يكمل، قاطعه رجل الأمن بالقول:

- لا أختك ولا مرتك، يعني مسكناكو بالجرم المشهود؟!

حين ذلك رد نبيل بصوت عال وبغضب:

- جرم ايش يا أخي، ايش شايفنا بنعمل؟ حاضنين بعض ولا بنبوس في بعض؟

هنا تدخل رجل الأمن الآخر قائلا:

- ولا كمان بترفع صوتك علينا، هات رخصك وهويتك.

ثم توجه إلى فدوى قائلا:

- أنت كمان هاتي هويتك.

ناولاه هويتيهما، فدقق فيهما، ثم قال:

- يعني مش أخوة ولا أقارب، ولا زوج وزوجة، أنت سواق وهذه سيارتك.

ثم تابع موجها كلامه لفدوى:

- أنت ايش بتشتغلي، ولي.

ردت عليه بغضب قائلة:

- أولا أنا مش ولي، أنا طالبة جامعية محترمة، فاحترم حالك أنت واللي معاك، وهذا المهندس خطيبي، صار شوفير على عهدكو، فلسفة زيادة بدهاش.

اندهش رجل الأمن، وقبل أن ينطق رجل الأمن الأول، قال له الثاني:

- اسكت أنت أبو معاذ ورد عليها بغضب:

- أما إنك مرة وقحة، كمان إلك عين، طبعا، مهي النسوان الصايعة، قليلة أدب، على كل حال، تعالوا معنا للمركز.

هنا انفجرت فدوى وصاحت:

- أنت اللي صايع وضايع وجاهل كمان، والله لأمسح فيك البلاط، أنت مش عارفني بنت مين؟

ثم اتصلت على الفور بأبيها، لكن المفاجأة كانت أن هاتفه لا يمكن الوصول إليه، فاتصلت بالمنقبة، وهنا طلبت منها أن تكلم الضابط، الذي رفض أن يكلم السيدة إيمان، وأصر على اقتيادهما للمركز.

هنا أخذ نبيل رجل الأمن الأول المكنى بأبي معاذ، والذي كان واضحا أنه أقل رتبة من الثاني بعيدا قليلا وهمس في أذنه ،بأن فدوى خطيبته، وها هي "الدبلة في إصبعه" وهي ابنة الشيخ الدكتور المهدي أبي حفص.

حين سمع اسم الشيخ، سارع أبو معاذ إلى أميره الأمني ،وهمس في أذنه، حيث ظهرت على وجهه المفاجأة،

فسألها بصوت خفيض، بعد أن عاد لقراءة اسمها في هويتها:

- أنت بنت مين يا أستاذة؟ردت بصلافة قائلة:

- مكتوب بهويتي بنت مين.

قال:

- إبراهيم عوض السحتوت الدفش فهمت ما يريد معرفته فقالت:

- الدكتور الشيخ أبو حفص المهدي.

حينها قال رجل الأمن:

- إذا كان هالكلام صحيح.

قالت:

- هو طبعا ما حدا ولا أنا بأقدر اتصل عليه، احتياط امني ،لكن خد رد على الأخت أم سلمة.

تفاجأ وقال:

- الأخت أم سلمة ضابط الأمن الداخلي قسم الحريم؟قالت:

- نعم هي

فتناول منها الهاتف وتحدث لأم سلمة. وما هي إلا دقيقة واحدة، وكان يقول لهما:

- حصل خير، هيك اختلفت الصورة، لكن إحنا بنقوم بواجبنا وحسب التعليمات، بس أنت يا أستاذة فعلا بنت أبوك ،شوية كنت بدك توكلينا.

ضحكت، وقالت:

- انتو سامحوني، صرخت عليكو، الله يعطيكو العافية، ولو احتجوا اشي احكوا لي رد عليها بالقول:

- تسلمي لنا على الشيخ .

57

منذ يوم الحراك الشبابي "بدنا نعيش"، وبسبب ما حدث فيه ،فترت الصداقة بين الفتيات الخمس، لكنها لم تنقطع تماما، فهن مجبرات على أن يبقين رفيقات طريق نبيل من بيوتهن إلى الجامعة وبالعكس، كذلك لم يغلقن الجروب، وإن كانت كل واحدة منهن، صارت تنشر ما يحلو لها، أو يتوافق مع ما صارت عليه من أفكار واختيارات، وفي

السياق بدلا من الصداقة الخماسية ،صارت الصداقة على أضيق نطاق، أو بين كل اثنتين، شيماء ولينا بتن أقرب لبعضهن، كذلك فدوى وفدوى، أما سوزان، فصارت تبدو كما لو أنها في عالم آخر، ما زالت تفكر وتحلل كل كلمة تسمعها، وتسأل كثيرا، ولا تلقي جانبا بأية معلومة ذات بال

.

شيماء بدت أكثر نشاطا واهتماما بالجروب، وربطته بصفحتها الخاصة على فيسبوك، وبدلا من النقاب الذي كانت تضعه على وجهها، صارت تكتفي بالحجاب، وصارت ترتدي كل يوم ثوبا مختلفا، وبعد أن كانت ترتدي في العادة الألوان الغامقة ،صارت تظهر بألوان زاهية، حتى أنها صارت تضع احمرا خفيفا على شفتيها، والكحل في عينيها، ثم رسمت التاتو على يديها ،والمايكروبليدنج على حاجبيها، كما كانت قد فعلت قبلها زميلاتها، والأهم أنها صارت تنشر بعضا من الصور الجماعية التي تظهر فيها، بعد ان كانت تعد ذلك فتنة وفجورا، وفيما يخص ما تنشره فقد صارت تنشر الأحاديث النبوية، والأدعية، وبذلك استقطبت صفحتها، آلاف المتابعين، وكان واضحا أن شيماء صارت مرتبطة عاطفيا بشاب ما، فهي تبدو سعيدة

دائما، وتدندن بأغاني الحب، كما أنها دائما ما تتلقى مكالمات هاتفية وتتحدث بالهاتف وهي تهمس وتضحك.

أما لينا، فبعد الأغاني العاطفية، بدأت تهتم بالأغاني الوطنية والدينية، وحتى الأغاني الحزينة، وصارت عكس شيماء تميل للون الأسود والألوان الغامقة عموما، ولم تعد تلك الفراشة المحلقة، أو الفتاة الناعمة، ورغم أنها ما زالت نحيفة وضئيلة الحجم، إلا أنها صارت تبدو مثل قطة شرسة، مستعدة دائما للعراك، ولا تسكت لأحد يحاول أن "يدوس" لها على طرف ،وإذا ما اقترب منها شاب أو تودد لها، صدته بكل جلافة وخشونة ،حتى أطلقت عليها سوزان لقب "لينا حسن صبي" . ولم يزعجها ذلك بل على العكس، وسمت صفحتها به، وصارت تعرف به بين أصدقائها وصديقاتها الافتراضيين، وحين كانت تنشر صورا لها، كانت تنشرها مرفقة بالمؤثرات الغريبة.

فدوى فضل التي تعد أكثر البنات هدوءا واعتدالا، اهتمت بالتطريز والطبخ وصنع الحلويات، وصارت تقدم للمطابخ ومحلات الحلويات الوصفات المختلفة، حتى عرض عليها أكثر من محل أن تعمل معه، وبقيت أف أف

في حالها، إلى أن جاء يوم تعرضت فيه لموقف صعب، وذلك حين عادت إلى البيت ووجدت أخاها ينتظرها وبيده حزامه يعده لجلدها، وما أن دخلت البيت حتى اقترب منها ونار الغضب تشتعل في عينيه، في حين كانت أمها إلى جواره، تقول له:

- بالهداوة يامة، طول بالك.

عالجها بالسؤال:

- أنت خاطبة من ورانا ولي؟تفاجأت ولم تعرف بماذا ترد

ضربها بالحزام، وظن أن عدم ردها، إنما هو إقرار بما فعلت دون علمهم.

قامت الأم بوضع جسدها حاجزا بينهما، فيما أطلقت فدوى صرخة هزت أركان المنزل، حين ذاك احتضنت الأم ابنتها ،وقالت لأبنها:

- ابعد غاد، واهدأ قلت لك، خلينا نفهم ايش صار .

بدأت بتهدئة ابنتها، وهي تسألها:

- صحيح يامة أنت خطبت الشوفير؟

بعض الهدوء حل بفدوى، فقالت:

- أنا؟ مين اللي حكى لكم ردت أمها على الفور:

- أنت ردي آه ولا لأ، لا تسألي مين حكى لنا، الناس كلها بتحكي إنه فدوى طالبة الجامعة خطبت الشوفير اللي بوديها الجامعة وبيجيبها منها.

حين ذلك أدركت أف أف اللبس الذي حدث، فقالت:

- آه فدوى خطبت الشوفير، بس هادي فدوى إبراهيم، مش أنا.

حينها ارتخت أوصال الأم، وارتخت أعصاب الأخ، وقبل أن يقول أو يفعل شيئا، قالت الأم:

- من الصبح بقول لك اهدأ، لنفهم إيش القصة، وأنت دايما هيك عصبي ومتسرع.

رد بالقول:

- هو أنا لما سمعت كلام الناس ظل فيّ عقل، طيب الحمد لله، خلص أنا بصالحك يا أختي، بروح أجيب لك كيلو نمورة اللي بتحبيها.

58

أف أف تجلس إلى جوار فدوى إبراهيم، بجانب نافذة السيارة الأمامية، في حين تجلس وراءها مباشرة سوزان، فيما شيماء ولينا تجلسان على الكرسي الخلفي، إحداهما بجوار الشباك الخلفي الواقع جهة اليسار، والثانية في الوسط، بين صديقتها وزميلتها سوزان، تتمتع أف أف بامتياز كونها بجوار النافذة، حيث الهواء يداعب وجهها، كما أنه بمقدورها أن تنظر للمرآة الملتصقة على الحافة اليمنى للسيارة، وكما هي عادة النساء، لا تكاد تمر لحظة ،إلا وتنظر فيها في المرآة، ومن حيث لا تقصد، ترى ما تفعله سوزان، أو ما تقوم به، وهي دائما ما تكون مشغولة بجوالها ،حيث صارت تلاحظ كما صديقتها فدوى، بأن سوزان صارت تستمع كثيرا وتسأل كثيرا، أما هي فقد بدأت تلاحظ وحدها بأن من تجلس وراءها، كثيرا ما تدون في الجوال، وكثيرا ما تكتب فيه، ولا تتذكر أنها تحدثت فيه مع أحد، وإن حدث فلا تكثر من الكلام، بل تستمع أيضا وتقول كلاما مقتضبا، وحين تنطق فليس أكثر، من كلمة واحدة، غالبا ما تكون: أوكي.

لم تعرف المجموعة بأن سوزان قد بدأت منذ ذلك اليوم ،الذي تم استجوابهم فيه، من قبل الضبط الميداني،

بالتعاون مع الأمن الداخلي، وهي تذهب معهن للجامعة، لكنها لم تعد تجلسمعهن، وأنها صارت تتعرف على الكثير من الزملاء والزميلات ،وأنها بقدر ما صارت انطوائية معهن، بقدر ما أصبحت حيوية مع الآخرين، وكانت مهمة سوزان، هي التقاط أي خيط يوصل لعميل يتعامل مع العدو، فهي رفضت أن تتعاون معهم، فيما يخص الصراع على السلطة بين حركتي فتح وحماس، أو فيما يتعلق بأي احتجاج داخلي، فقط في ملف الأمن الوطني، وكان هذا شرطها، وهي بنت العائلة المعروفة بأنها على مستوى جيد ،وأنها محسوبة بمعظم أبنائها على حركة فتح والجبهة الشعبية ،كما أنها وافقت على القيام بهذا العمل كمتطوعة، ورفضت أية مكافأة مالية، بل أي امتياز من قبيل التسهيلات لها، إن كان في الجامعة أو السفر، أو أي شيء من هذا القبيل.

59

رغم أن المشكلة التي واجهت فدوى ونبيل مع رجال الضبط الميداني قد مرت على خير، إلا أن تداعياتها لم تنته،

فقد كان هناك على الشاطيء من شاهد الواقعة، ولأنه لا يمكن إخفاء أي أمر في قطاع غزة، فقد تناقلت الناس تعرض رجال الأمر بالمعروف ،لشاب وفتاة، تم ضبطهما في سيارة، بحيث يتم "تبهير" الحكاية حسب الراوي، بعضهم يرويها مختصرة، ويقول بأن هذا ما شاهدهوسمعه، وبعضهم يسرح في خياله، فيقول، بأن الواسطة هي التي منعت من حبس الشاب والفتاة، فهما كانا يمارسان فعلا فاحشا ،كان من المؤكد أن يحكم عليهما بالحبس وربما بالرجم، وهناك من قال، بأنه تم "لم" الفضيحة حين عرض الشاب الزواج من البنت، فيما تناقل البعض الحكاية على أنها ما زالت قيد المتابعة ،وأن الشاب والفتاة، سيذهبان غدا للتحقيق، ويبدو أن رجال الأمن صوروهما، وعرضوا الصور على أهل الشاب، وتخوفوا من عرض الصور على أهل البنت خشية أن يقوموا بقتلها .

وقد تلا تداول الحكاية الجدل الذي صار يدور حول إن كان جلوس الخطيبين معا في مكان عام يجوز أم لا، وإن كان يجوز فمن يدري ربما تجر اللقاءات المتكررة إلى خلوة محرمة، وإذا كان المخطوبان بعد أن يكتبا كتابهما يعتبران

حلالا لبعضهما شرعا، إلا أن العرف، حرم خلوتهما قبل الزفاف المشهر بين الناس. سرعان ما وصل خبر الحكاية إلى الشيخ الذي تصله كل معلومات المنطقة أولا بأول، وأهم ما نقل من قبل الرواة هو وصف السيارة الذي دل على أن بطلي الحكاية هما ابنته وخطيبها، لذا سارع فورا للاتصال بقيادة الضبط الميداني لجهاز الأمر بالمعروف، ودقق في تقرير رجلي الأمن، فعرف بأن كل ما تضمنته الحكايات المتداولة كان إشاعة وزيادات متخيلة .

لهذا ما أن عاد الشيخ للبيت حتى كان يلقي في وجه ابنته قرارابمنعها من الخروج مع نبيل وحدهما .

60

لم يعد هنالك غير الأخت أم سلمة، تلجأ إليها فدوى كلما قام أبوها بالسطو على أي من حقوقها الإنسانية، أو قام بتقييد إضافي لحريتها، وهي صارت كما وصفتها أول مرة أنقذتها فيها من تعنيف أبيها لها، الملاك الذي هبط عليها من السماء، لذا ما أن أصدر أبوها قراره بعدم مقابلة خطيبها، حتى سارعت بالاتصال بإيمان، التي كانت بدورها

تجد في حاجة فدوى لها، وفي لجوئها إليها، طريقا تحقق فيه ومن خلاله مأربها، الذي ظلت تسعى له منذ أول يوم رأت فيه إبراهيم الدفش، وهي الوحيدة التي تسميه الحمش، بدلا من الدفش، وهي تحب الرجل الحمش، وقد أقنعته فيما بعد أن يذهب للمحكمة ويحصل على حكم قضائي بتغيير الكنية من الدفش إلى الحمش.

مصائب قوم عند قوم فوائد، وهذا ينطبق بالضبط على علاقة إيمان وفدوى، فكلما احتاجت فدوى إيمان من أجل كبح جماح أبيها تجاهها، كلما وجدت إيمان ذلك سببا للاتصال به والتقرب منه، إلى أن بدأت في تقديم نفسها للرجل ولأبنته على أنها ليست الأخت الكبيرة لفدوى، بل هي بمثابة تعويض لها عن أمها التيتحتاجها البنت أيام التحضير لزفافها أكثر من أي وقت آخر.

61

اتصلت أم سلمة بعبد الله مرافق الشيخ الذي استغرب بدوره من اتصالها، وقد ظن أن من عادة النساء، أن تنتظر

الرجل ليبادر بالاتصال، فهن يظهرن الدلال وإن كن راغبات، استمع لعتابها، وهي التي باتت تراه أقرب إنسان لها، وباتت ترى في إبنته أختها الصغرى أو حتى بنتها التي لم تنجبها، وقبل أن يفكر في سبب اتصالها به، وقبل أن يحصره في سبب وحيد وهو تعلقها به، وحبها له، الذي لا تكاد تخفيه، بل كل ما فيها يوحي به، وبداخله يسبب له حرجا بقدر ما يثير في نفسه نشوة الرجل الشرقي، بادرته بالسؤال:

- ليش صار لك أيام ما بتسأل يا شيخ، وألا أنت مش مشتاق إلنا؟ شفتك ما اتصلت قلت اتصل أنا .

رد بالقول:

- أنت عارفة مشاغلي ومسؤولياتي، كمان قلت بيكفي إنه بنتي محملاك مسؤولياتها، بعدين أنت فيك الخير.

قالت:

- طيب ما علينا، أنا بالنسبة إلي عادي، شفتك ما اتصلت ،اتصلت أنا، وأنا مشتاقة الكو، أنت وفدوى، صرتوا أهلي وعيلتي ،وأنا اليوم عازماك ع الغدا، لا تقولي عندي

شغل، ومش عارف ايش، ما باقبل أعذار أنا، من امبارح حضرت كل حاجات الغدا.

قال مبتسما:

- له يا ست الكل أنت، واجبك علي وفوق راسي، خلص أنت تفضلي عنا، وحضري السلطات مع فدوى، وأنا باجيب كل شي.

قالت له:

- لا أنا صاحبة العزومة، والغدا مني أنا، وغير هيك ما في كلام.

قال:

- طيب ماشي، بس ما فيها حرج اجي لعندك؟ردت سريعا:

- طبعا، ايش تيجي عندي، أنا اللي جاية عندكو، وجايبة معي محاشي ومقلوبة، بدي أطعميك من طبخي، بدل الأكل الجاهز اللي بتظلك تاكله.

قال:

- إذا هيك، ماشي، اتفقنا، وأهلا وسهلا.

بعد أن تغدوا، سألته قائلة:

- قل لي يا شيخ ولا تزعل مني، أنت ليش مانع فدوى من إنها تقابل خطيبها؟رد بالقول:

- يعني انت مش عارفة ليش؟ مش اتصلوا عليك والضبط الميداني كان بده ياخدهم على مركز التحقيق، ولولا فضل الله علينا، كان انفضحنا.

قالت:

- أنت عارف كلام الناس، وكمان عارف إنهم ببالغوا، لأنه كمان الأخوة الميدانيين علامهم محدود.

قاطعها قائلا:

- هذا الموجود، وإحنا عايشين في مجتمع، إما بنعيش زي ما بده، وإلا بنهاجر.

قالت بضعف:

-بتحكي مزبوط، لازم نراعي المجتمع والحكم، لكن لكل إشي حل.

قال متسائلا:

-وايش هو الحل عاد؟

قالت بثقة:

- ما دام كلام الناس أساسه إنه البنت والشاب وحتى لو كانوا مخطوبين، لحالهم بيثير الشبهه، الحل يكون معهم حدا، وهيك ما بيعود في كلام.

سألها:

- كيف ومين يكون معهم؟قالت بكل بساطة:

- أنا بكون معهم.

رد مستفسرا:

- وبأي صفة راح تكوني معهم؟قالت مستسهلة الأمر:

- أنا زي أختها الكبيرة، أو حتى أمهارد:

- قلت زي، يا ست إيمان، الناس من غير إشي عمالهم يحكوا شروي غروي، عطول راح يقولوا مين هادي، وإيش بتعمل في دار الشيخ كل يوم وهي عندهم.

قالت:

- طيب ايش نعمل يعني، أتزوجك حتى أخد صفة شرعية؟

فاجأته، وهنا تدخلت من ظلت صامتة طول الوقت مخافة أن تعقد الأمور بأي شيء تقوله، فقالت فدوى:

- والله يا ريت يابا، ما في منها الست إيمان، أختي وأمي وحبيبتي، وما في وحدة بتحب لك الخير قدها غيري أنا طبعا.

يبدو أن الرجل أستوعب الأمر أو أنه سار في ما وجد نفسه فيه من مسار، فرفع يديه وقال:

- الفاتحة على نية التوفيق والتمام على خير إن شاء الله .

62

منذ أن عرف بأن راية النبي كانت سوداء، صار يعشق ذلك اللون، يرتديه، ولم يلون جدران منزله وباب داره، وحتى باب غرفته به فقط، بل صار يوصي كل من يعمل معه، وكل من يلتقيه باللون المبارك الأسود، حتى أنه انتقد داخل الحركة التي جعلت من اللون الأخضر لونها الخاص، لكن الأخوة في حركة الجهاد وألوية الناصر صلاح الدين، لونهم هو الأسود، وحين انتهى من إقامة مكتبه لم يجعل لونه هو الأسود وحسب، بل قال لمرافقيه، بأن حركة إسقاط البيت الأبيض، ستنطلق من هذا البيت

المصطفوي ،واشهدوا على ما أقول، من هنا ستنطلق حركة الجهاد العالمي المقدس، لتقيم شرع الله على الأرض قاطبة، واشهدوا على ما أقول، من هذا البيت الصغير، سينتشر نور السماء، ليحل في الأرض جميعا، ومن هذا البيت، بيت المهدي، ستتحقق النبوءة ووعد الله، بنصر لم يشهد الزمان مثله، بحيث لن تقوم لأمة الكفر بعده قائمة، فابشروا يا معشر المؤمنين، وأنا أميركم، بأن ما نبدأ به اليوم، لن ينتهي قريبا، ولا قليلا، بل سيصل لآخر الدنيا، والأسود سيجب الأبيض، ويطوي صفحته إلى الأبد.

حينها رددوا بصوت مجلل: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر .

من ثم حمل الشيخ سلاحه، فتبعه مرافقوه، وركبوا العربة الجيب، وساروا بمحاذاة الحدود الشرقية، يتفقدون عناصر المرابطين، الذين يكاد يعرفهم واحدا واحدا، حين كان يعمل معهم، مقابل المائة دولار التي بالكاد، كانت تقيم أوده، وهم يحبونه، وهو بدوره ينحاز لهم، ولا يترك فرصة تمضي دون أن يحقق لهم ما يقدر عليه من تنقلات لمواقع أفضل، أو لمناصب أهم، حتى توزع بعضهم بين مستويات الحكم، فصار لا يتم أمر ولا

يتخذ قرار دون أن يكون الشيخ أبو حفص موافقا عليه، لذا فقد تم تعيينه عضوا في المجلس الاستشاري للحركة .

63

بعد أن فرغت من عمل البيت، وقامت بإطعام دجاجاتها وطيورها، اتصلت السيدة أم نبيل على جارتها أم حسام، ودعتها لزيارتها، لتشربا القهوة معا، فأجابتها جارتها بأنها ستنتهي من عملها في البيت، ثم تأتي لها، لكنها لن تمكث طويلا، فقط في حدود ساعة، ذلك أنه عليها أن تعود قبل أن يرجع أولادها من المدارس وزوجها من عمله كبائع ترمس وبوشار على باب المدرسة، وبالفعل، بعد ساعة بالضبط، كانت أم حسام تدق جرس باب منزل أم نبيل، التي رحبت بها، وأدخلتها إلى صالون بيتها. ثم وضعت أمامها "سبط" الحلو، وتركتها وذهبت للمطبخ لتعد القهوة المضبوطة والمحوجة جيدا بالهيل، وما أن انتهت حتى عادت لجارتها، تقدم لها القهوة، فترتشفها وهي تسأل جارتها عما حدث من جديد فيما يخص خطبة نبيل وفدوى ،وحين أجابتها أم نبيل، بأن

إبنها ينتظر السفر للخارج، ليرتب أموره هناك ومن ثم يرسل لخطيبته، حتى تلحق به، وهو يقول بأن فتح بيت غير ممكن في قطاع غزة وهو في هذه الحالة، وأنه إذا كان سيتزوج وينجب أولادا، فعليه أن يؤمن لهم مستقبلهم ،أقله عبر الإقامة خارج القطاع، إما بالهجرة، أو للدراسة والعمل ،أو للعمل إن أمكن على شهادته .

قالت أم حسام:

- والله إبنك معه حق، ما في أمل هان لحدا، هيو صار إلنا خمستعشر سنة وإحنا محبوسين وعايشين من قلة الموت، مين صاحله يهاجر ورافض وألا مش راضي؟

حين ذلك استعرضت المرأتان أخبار كل أهل الحارة، وتبادلتا ما تعرفانه عن كل من فيها من رجال ونساء، شباب وفتيات، إلى أن انتهيتا من شرب القهوة، وجاء الدور على قراءة الفنجان.

قرأت أم حسام وقالت:

- شايفه بابكو مفتوح، والعصافير معششة فيه، شكلكو مسافرين يا جارتي، أبو نبيل ظهره محني، وأنت مادة ايديك، كأنك بدك اشي من حدا، شوفي بس مش

شايفة نبيل معكو، ومن بعيد في حمامة بتلوح لك، بدها تعطيك رزقة، بتودعك مش عارفة بالضبط .

64

فوجيء أبو نبيل بالشيخ يتصل به، ويسأله، إن كان موجودا بمقهى الصيادين على شاطيء البحر، وحين أجابه بالإيجاب ،أخبره بأنه قادم بعد ساعتين، ويرغب في أن يراه، وأن يتحدث معه، ثم أقفل الخط، ليبقى أبو نبيل في حيرة حقيقية، لأنه لميعرف السبب أو الدافع الذي من أجله يريد الشيخ أن يحضر إليهبنفسه، وهنا بين الصيادين، وليس في البيت مثلا، وكان يمكنه أنيطلب منه أن يذهب هو إليه، إن كان في بيته أو في أي مكان، وما كان بإمكانه أن يعتذر، أو أن يحتج مطالبا إياه هو بقدومه هو إليه.

لم تطل حيرة أبي نبيل كثيرا، فلم يمض أكثر من نصف ساعة ،وكان الشيخ بهيلمانه يحضر، ويتجه إليه مباشرة، فيسلم عليه بحرارة، قائلا:

- سلامات أبو نسب، وين يا رجل، اشتقنا لك، وينك لا حس ولا خبر، ولا بتسأل.

اعتذر أبو نبيل معللا عدم سؤاله عن الرجل بمشاغله التي يسمع عنها، فهو كان الله في عونه، يتحمل مسؤولية الأمانة، وهو لأجلها لا يكاد يهدأ، لا يمكث طويلا في بيته ولا يجلس على مقهى، ولا أحد يراه في سوق، وإن كان الجميع يسمع عنه، ويكاد يحس به قريبا منهم.

سارع أبو نبيل إلى سؤال نسيبه عما يشرب، رد الشيخ قائلا:

- هات لي ينسون.

وبدأ يسأل أبا نبيل عن نبيل وعن أحواله، كذلك عن أحواله هو، وعن صيد البحر، وعما يواجهه الصيادون من إزعاج إسرائيلي، ثم بدأ يسأله عمن يرافقه من الصيادين ومن يعرفهمجيدا، واحدا واحدا، وإن كان يشك في أحد منهم يتعاون مععدو، ثم ركز أسئلته على اثنين منهم بالاسم، حيث يبدو بأن هناكشكوكا حولهما.

أجابه أبو نبيل بكل ما يعرف، وأنه يقدر ثقته به، كذلك هو متأكد من حرص الأخوة المسئولين على مصلحة

الصيادين ،وعلى بذل كل ما يقدرون عليه لمواجهة الضغط الأسرائيلي المتواصل، خاصة هذه الأيام، حيث الأجواء متوترة، فيما يتزايد احتمال المواجهة العسكرية يوما بعد يوم.

65

أحس الشيخ بأنه قد أخذ على حين غرة، كيف حدث وأن قرأ فاتحة المنقبة؟ صحيح أنها امرأة صالحة وليس فيها أي عيب يمنع أي رجل عاقل من الزواج منها، لكن هو بالذات، الذي نسي أمر النساء منذ سنوات، عاد ليتساءل إن كان من الأفضل له أن يبقى دون زواج، بعد الذي وقع به منذ أعوام طويلة، وهو دائما يتجنب تذكر ذلك اليوم المشئوم، ورغم أن موت زوجته بعد ذلك قد أوقعه في الامتحان الصعب، حين طالبه أقاربه وأصحابه بالزواج ،لكنه رفض بحجة التفرغ لتربية ابنته، وتجنب أن يحضر لها زوجة أب، تنغص عليها حياتها، لكن البنت نفسها موافقة، بل متحمسةللسيدة إيمان، أو أم سلمة، كما باتت تطلق على نفسها، وينياديها منيعمل معها، فماذا يفعل؟

الطامة الكبرى ستقع لو أنها كانت تريدأن تنجب ولدا تسميه سلمة، أو حتى حفص. ارتعب من الخاطر ،وقرر أن يلتقي بها، ويخبرها بأنه قد وافق على قراءة الفاتحة، حتى لا يعكر صفو ابنته، ولأنها ضغطت عليه أمامها، لكن قراءة الفاتحة لا تعني إتمام الزواج فعلا، وهو منذ سنوات قد قرر أن لا يفكر فيه أبدا، وان يتفرغ لرسالته في جهاد العباد والأوغاد .

كان من عادة الشيخ كلما ذهب إلى منطقة ما في مهمة، أو حتى من أجل قضاء حاجة ما، أن يحرص على الصلاة في واحد من المساجد التي كان يؤم الناس فيها أحد شيوخ الحركة الأوائل، وكان يتأمل قباب المساجد فيعجب كون بعضها مطلي باللون الأخضر وبعضها بالأبيض، مع أن الكعبة لونها هو الأسود، كذلك الحجر الأسود، لكنه أيضا تذرع بأن المسجد النبوي فيه قباب خضراء وأخرى بيضاء، وليس هنالك من قبة لمسجد لونها أسود، لذا فقد اقترح يوما على مجلس الشورى ،أن يتم تغيير راية الحركة الخضراء، والتي يبدو أن ذلك اللون قد تسلل لذاكرة مؤسس العقيدة الأخوانية من السلف العثماني ،للون الأسود، لون راية رسول الله، لكن المجلس رغم إقراره بوجاهة الاقتراح،

إلا أنه رفض الفكرة، ذلك أن الحركة باتت معروفة برايتها الخضراء، بل إن الأخضر بات لونها، مقابل لونحركة فتح الأصفر، ولون اليسار الأحمر.

وفي يوم من الأيام مر بالشيخ عجلين، فتذكر كروم العنبوالتين، التي كانت تملأ تلك المنطقة، لكن اكتظاظ السكان ،والتزايد السكاني بدون أية كوابح، جعل مالكي تلك الأرض التي كانت تمتد من شاطيء البحر حتى حارة الزيتون، ومنهم عائلات شملخ والدحدوح وقزعاط وغيرها، يقومون بتقطيع تلك الأرض إلى قطع صغيرة وبيعها للسكن، وهكذا كما حدث في المنطقة الشرقية الممتدة من أرض الشوا إلى مشارف جباليا، حيث كانت كلها عبارة عن بيارات مزروعة بالحمضيات، من البرتقال البلنسيا للشموطي وأبو صرة، إلى الكريفوت والكلمنتينا، ثم تحولت إلى قطع متناثرة، بعضها تحول لمزارع، وبعضها لمساكن، وأحياء سكنية. المهم أن الشيخ عرج على الصبرة، المسماة بجورة الشمس، وحرص على الصلاة في المجمع الإسلامي حيث كان يصلي الشيخ الراحل أحمد ياسين، على مقربة من منزله الشخصي .

ثم توجه بعد ذلك شرقا، حتى وصل حمام السمرة، خلف عمارة صهيون، فدخل الحمام، حيث قام بفرك جسده بالماء الساخن والصابون، حتى شعر بأن خلاياه قد تنفست، وأن كل مفاصله كما لو كانت مفاصل سيارة تم "تزييتها"، فصارت أكثر ليونة وحيوية، وحين انتهى من ذلك اتجه نحو مائتي متر باتجاه الجنوب، فصلى صلاة المغرب في جامع الشمعة، وحين سأله مرافقه، لم لم يصل في الجامع العمري، الذي لا يبعد عن حمامالسمرة أكثر من مئة متر، قال له: سأصلي فيه العشاء إن شاء الله ،فصلاة العشاء أطول من صلاة المغرب، وحيث يمكنني أن أمكث وقتا أطول في أكبر وأقدم وأهم مساجد قطاع غزة على الإطلاق .

66

ما أن رن جرس هاتفها وفتحته ورأت اسمه، حتى فرحت، وما أن فتحت الخط، حتى فاجأها بالقول:

- أخت أم سلمة، أريد أن أتحدث معك في أمر شخصي ،ضروري جدا،،

قاطعته قبل أن يكمل، وقد ظنت بأن أحد مرافقيه هو الذي يتحدث معها، وليس الشيخ أيراهم، وردت عليه بالقول:

- مين اللي بيحكي؟استغرب من سؤالها وقال:

-مالك أخت أم سلمة، أنت حاذفة رقمي من جوالك، طيب غشمتي عن صوتي؟ردت قائلة:

- لا الرقم مخزن عندي باسم إبراهيم حليلي، وعارفة الصوت ،بس مستغربة من لهجتك، اللي بادي لي إياها بأخت أم سلمة ! تلعثم قائلا:

-مهو هدا السبب اللي خلاني اتصل فيك، بدي أحكي معك في موضوع بيهمنا، وما بينفع نحكي بالتلفون.

ذكاؤها الحاد دفعها إلى سؤاله:

- لا أنت قلت لي شو هو الموضوع المهم والضروري والشخصي واللي بيهمنا إحنا الأتنين.

استغرب جدا، وبدأ يتذكر إن كان وهو نائم أو وهو غائب عن وعيه قد أخبرها، فقال:

- أنا حكيت لك؟ وقتيش طيب؟ كنت نايم وألا صاحي ،كنت في وعيي وألا بهلوس؟ردت بثقة:

- في كامل وعيك وأنت صاحي، وهلقيت أنت قلت لي.

قال:

-برضه مش

فاهم قالت:

- أنت بطلت عن الخطبة، وبدك تخبرني انك تراجعت عن قراية الفاتحة، وما بدك نكمل مشروع زواجنا سوا، هيك وألا لأ؟اضطر إلى القول:

- والله مزبوط، بس أنت كيف عرفت؟ شكلك مكشوف عنك الحجاب وألا إيش، بتقري أفكاري، أسوق عليك الله ،كيف عرفت، ما بسألك مين خبرك، لأني ما حكيت لحدا ولا للطير الطاير .

ضحكت وقالت:

- عشان تقدّر وتعرف مين هي إيمان، مش أم سلمة، أي لو في شرعكو بيجوز ولاية النسوان، كان حطيت عيني ع الخلافة.

وواصلت الضحك بشكل مجلجل.

شعر بالخجل وقال:

- اها عرفت مجرد ناديتك بأخت أم سلمة؟ فعلا ذكاؤك حاد ،بس أنا بشكل عفوي حكيت هيك.

قالت:

- طبعا مهو لما الواحد يكون عفوي بيعبر عن داخله بشكل صادق، أما لما يفكر بإيش بده يحكي، بينقي كلماته بعقل، واللي قباله ما بيعرف إيش قصده فعلا، وألا ع إيش ناوي.

قال لها:

- طيب ما دام عرفت، ايش رايك؟

بذكائها ردت:

- طيب خليني أمشي معك، مش من حقي أعرف السبب؟ شفت فيّ وألا سمعت عني إشي بطال؟على الفور قال:

أعوذ بالله، والله ما شفت ولا سمعت منك وعنك، إلا كل خير، وكلك على بعضك بتشرفيني وبتسعديني، يا ست إيمان ،أنت ما فيك أي عيب، العيب في أنا.

ردت قائلة:

- تف من تمك يا رجل، أنت كل الخير والبركة، أي عيب اللي بتحكي عنه؟ وتابعت ضاحكة، يعني عشان بيقولوا عنك دفش؟ انا شايفاك حمش، وهذه صفة رجولة وغيرة الرجل على عرضه.

قال موضحا:

- طيب مش انت سميت حالك ام سلمة؟ردت بالقول:

- اه مش عاجبك بنغيره، وين المشكلة قال:

- المشكلة، هذا بيعني إنك مفكرة يكون لك ولد لما تتزوجي ،وتسميه سلمة.

قالت:

- صحيح، لكن كمان لسة مش فاهمة وين المشكلة عندك ،ومجرد إنك عرفت إني سميت حالي أم سلمة، ما هو هيك صار تقليد جماعاتنا، زي ما أنت سميت حالك أبو حفص، يعني عشان ام سلمة،بطلت بدك تتجوزني، بنغيره لأم حفص .

ألقى لها أخيرا الكلمة / القنبلة قائلا:

- لأنك إذا تجوزتيني أنا بالتحديد، ما في لا سلمة ولا حفص ،ولا حتى زينب.

فهمت أخيرا السبب الذي دفعه للتفكير في فض الخطبة ،فقالت لمزيد من المعرفة، ربما بدافع فضولي:

-لكن يا شيخ إبراهيم إنت تزوجت من قبل، وخلفت فدوى.

لم ينتظر كثرة الكلام معها، وقال:

- آه هذا صار، لكن بعد هيك صار لي حادث، بيمنعني من الخلفة، وخلاني حتى ما أفكر بالزواج بعد المرحومة أم فدوى.

هنا عرفت أنه لم يعد بمقدورها أن تفكر بالزواج من الشيخ إبراهيم وفي نفس الوقت تحلم بالولد.

فقالت:

- ضريبة البطولة، مهو الكفار، بيعملوا في المجاهدين لما يعتقلوهم بلاوي، وطبعا هم مرعويين من أولادنا من بعدنا، مشبيقولوا قنبلة ديموغرافية؟ أنا برفع راسي فيك حبيبي يا شيخإبراهيم، وباعيش معك العمر كله وأنا بافتخر فيك.

تعجب من المنحى الذي ذهب به عقلها لتفسير عجزه عن الإنجاب، لكنه استحسنه، ووجده مبررا مناسبا حتى لإعلان ما هو فيه، وما زال يخفيه عن كل الناس طوال كل تلك السنين .

67

صارا بعد ذلك يمضيان الوقت خاصة في الليل معا عبر الفضاء الأزرق، يحلمان بقبلة معا، يتحدثان كثيرا، وينتظران، هو أن يكون من المسافرين عبر معبر رفح، وهي بالتخرج، لتلتحق به فيما بعد ،فيعيشان في بلد ما بعيدا عن الحصار الخارجي والتزمت الداخلي ،يحلمان بأن ينجبا ولدا وبنتا فقط، لا دزينة أولاد، يعيشان طفولة أفضل من طفولتهما، وشبابا أحسن من شبابهما.

صار الخطيبان يظهران بشكل دائم معا، ومعهما السيدة إيمان ،يجوبون ثلاثتهم الشوارع بالسيارة، يذهبون للشاطيء ويجلسون على مقهى الصيادين، يتناولون المياه الغازية، كما يظهرون في الكافي شوب، دون أي تحفظ، يتجولون في الأسواق معا، إلى أن بدأت الناس أيضا تتحدث

عنهم، حتى وصل الكلام إلى أموأبي نبيل، حين جاءت أم حسام لجارتها، وقالت لها، اليوم كانواعندي سلفاتي، أم جهاد بتسألني، إيش قصتهم دار الشيخ، هدولنسايب جارتك أم نبيل، وأضافت قائلة، جاوبتني لما سألتها ،مالهم، وقالت:

- إيش مالهم؟ طول اليوم بنتهم مع إبن أم نبيل رايحة جاية ،صحيح معهم ست منقبة، لكن هي مين هادي؟ سألنا، قالوا خاطبها الشيخ، طيب وهي ملهاش أهل، رايحة جاية عند الشيخ وبنته، وكل الناس عارفة إنه ملوش مرة؟

يعني الناس بتحكي وبتنقل الكلام، كانوا نبيل وفدوى لحالهم وألا معهم الست المنبقة، طيب وبعدين في أهل البلد؟ردت عليها بالقول:

- متجوزوهم وتخلصوا من كلام الناس .

قالت أم نبيل، طيب سيبك من كلام الناس اللي ما بخلص ،وتعالي نشرب القهوة ونقرأ الفنجان .

وبعد أن قرأت الفنجان لجارتها، قالت أم حسام:

-يا اختي يا أم نبيل طنيبة عليك، تلبي لي هالطلب، أنت عارفة إنه إحنا ناس معيليين، وجوزي عمره ما كان إله وظيفة، لما تجوزته كان عامل في إسرائيل، وأهلي وافقوا عليه، قال إيش بطلع كل يوم 300–400 شيكل، كنا أيامها نقول عليها ثلاثة مليون وأربعةمليون، بعدين من يوم ما سكرت إيريز في وجوهنا، صار يجريورا الكابونات، إشي من الوكالة، وإشي من الشؤون، إنتو ما شاء الله ناسبتوا زلمة كبير في الحكومة، يا ريت تحكي له يسجلنا في منحة قطر، وهي يا اختي صورة هوية جوزي، بالله عليك يا أختي يا أم نبيل، بنوبك ثواب من ورانا، وناولتها صورة الهوية.

ردت أم نبيل بالقول:

- ساهلة على قد المرسال يا أم حسام، أنا باعطي الهوية وباحكي لكنتي فدوى، وهي بتحكي لأبوها، وربك يجيب اللي فيه الخير.

حين عاد نبيل إلى البيت، أخبرته أمه بما يدور على ألسنة الناس، فقال لها، بأنه سيخبر خطيبته بهذا، وأنه بات مقتنعا بأنه ما من جدوى ليظل ينتظرها حتى تتخرج ثم يتزوجان، ليخرجا معا، فالناس قد اعتادت "الغم"،

وبات أي مظهر فيه سعادة أمرا غير مألوف، بل ومستنكر، وفعلا اتصل بفدوى، وأخبرها بأن يقتصرا على المكالمات الهاتفية، كذلك على التواصل عبر ماسنجر الفيسبوك والواتس أب، وأن تقول هذا للسيدة إيمان ،التي تتجشم عناء مرافقتهما كلما خرجا ليستمتعا بالهواء الطلق ،بعيدا عن خنقة البيوت، وافقته، ثم أخبرها بأنه سيتفرغ لها كل يوممن الساعة العاشرة مساء، حتى يكونان معا.

بدورها فدوى أحالت المهمة التي حولتها لها حماتها، لمنلها "دالة" قوية على الشيخ، وما أن وصلت إليه صورة الهوية ،وتأملها، حتى قال لمن قرأ فاتحتها على نية التوفيق والتمام على خير، وما زال مترددا في الذهاب بنية التوفيق ومواصلة التمام على الخير:

- اسمعي يا إيمان، هدي المرة اجتماعية كتير، وبتعرف كل نسوان الحارة، بتروحي لعندها، وبتحكي لها، أدرجنا اسمكو في قوائم المنحة، لكن بدنا منك خدمة أنت كمان، والدنيا أخد وعطا، وعشان تظلها المنحة تنزل الكو كل شهر، بدنا منك أول اشي قائمة بكل نسوان الحارة، مين أزواجهم وأولادهم، وبعد هيك إيش بستمعي وإيش بتعرفي،

مين منهم بيحب حماس ،مين بيكرها، مين بتواصل مع رام الله، الطالعة والنازلة، الكبيرة والصغيرة، أولا بأول، وبتخلي ارتباطها معك، وهيك شكلك أنت راح تظلي عندنا هان بالحارة، أنا بترك البيت الك ولفدوى ،عشان الحلال والحرام، وأنت بدك تحطي ببالك، تأسسي شبكة أمنية نسوية في الحارة .

قالت بكل هدوء:

-سمعا وطاعة أميري .

68

كان ذلك المساء قبل العاشرة في البيت، وما هي إلا دقائق ،وكانت فدوى تتصل به على ماسنجر الفيسبوك، وتبث له مكنون صدرها الذي يحتوي على قلبها الذي لا ينبض إلا بإسمه، تنتظر اليوم الذي ينغلق عليهما باب غرفة النوم، فتلقي بروحها وجسدها بين يديه، قالت بأنها تشتاق له كل لحظة، وأنها لا تطيق أن يبتعد عنها ولو لثانية واحدة، قالت بأنها تظل طول اليوم تفكر به، وحين تنام

تحلم به، لقد بات نبيل كل ما لها في هذه الدنيا، التي لا تريد منها أحدا سواه، أما هو فقد استمع لها بشغف ثم قال:

- بحبك يا فدوى، باعشقك فعلا، وأنا كمان نفسي نكون سوا اليوم قبل بكرة، عموما هانت، هي أيام ويطلع إسمي في تنسيق المعبر، بعد ما دفعنا 1200 دولار، خليني أطلع، وأول ما أوصل بتطلعي إنت، هان ملناش مستقبل يا حبيبتي.

ردت عليه بالقول:

- موافقاك، لا إلنا مستقبل هان ولا حاضر، وإحنا لسة شباب وبأول عمرنا، إحنا ناخد الفيزا لتركيا، وبنمر بمصر ترحيل وألا دخول مش مهم، ومن تركيا لليونان تهريب، وبنقدم هجرة لبلجيكا، ألمانيا، هولندا، السويد وألا النرويج، أي بلد، متل ماكل اللي بطلعوا بيعلموا.

قال لها:

- مزبوط، بس خليني أنا أطلع الأول، أرتب كل شي، لحد ما تتخرجي، وكلها بقية هالسنة، وحتى ما أظل أنا وإياك كتير بتركيا ،ولما أرتب الطلعة لليونان، ببعت لك، البنات أسهل تدخل مصر ،المهم إنه نمشي على هالمخطط.

قالت:

- والله خايفة بلبولي، تروح وتنساني، حابة نطلع سوا، مش طالعة مني أقول رجلي على رجلك، لتنقز وتقول من أولها.

قال لها:

- لا تخافي ولا عبالك، بتركك مع إيمان، وهي بتدبرك، يا الله تعالي نروح على الواتس أب.

وفي الواتس اب، أخذ العاشقان راحتهما جيدا، كما لو كانا عريسين في غرفة نومهما، سألها أولا أن تنزع المنديل عن رأسها ،فهو حتى تلك اللحظة لم يكن قد رأى شعرها، ففعلت، ثم طلب منها أن تقف، ففعلت، كانت ترتدي بيجامة بيضاء، أرسل لها قبلة، وقام باحتضانها، فاشتعلت .

69

مر أكثر من أسبوع على سفر نبيل، ولم يتصل بفدوى، التي كانت حين تسأل عنه أمه، لا تدري السيدة الطيبة بماذا تجيبها ،غير أن تقول لها، إنه قد وصل تركيا وهو

بخير، وأنه يتصل بأبيه بين فينة وأخرى، ورغم أن السيدة صبحية قالت لإبنها بأن فدوى تحترق عليه، وهي متفاجئة من تصرفه هذا معها، إلا أنه قال لها ،بأنه لا يعرف ماذا سيحدث معه، ولا يريد أن تظل البنت متعلقة به، وبسبب السؤال عن نبيل ولأسباب أخرى باتت فدوى تقضي معظم وقتها عند من تعتبرها حماتها، فمن قبل، ما كان يمكنها أن تذهب لبيت من كانت تراه زوج المستقبل، بسبب كونه مقيما فيه، حتى لو كان معظم الوقت خارج البيت، أما بعد أن سافر، فليس في البيت سوى أم نبيل وأبو نبيل الذي هو محرم عليها، ليس لكونه في عمر والدها، بل لأنه أيضا في نظرها ونظر الناس حماها، وهكذا تغيرت أمور كثيرة بسبب سفر نبيل، فقد ترتب على ذهاب فدوى كل يوم لعند أم نبيل، معظم اليوم، حتى صارت أحيانا تبيت عندها، أن حررت السيدة إيمان من عناء المجيء إليها ومرافقتها، حين يتعكر صفو علاقتها مع أبيها، أو حين كانت ترافقها في خروجها مع خطيبها، إيمان التي كانت ترى في المجيء بحجة رعاية فدوى، فرصة من أجل التقرب من الشيخ، حتى يتزوجها، ثم بدأت تفقد الأمل الذي راودها منذ رأته

يوم مسيرة العودة، ولفت انتباهها بحيويته وحماسه وحضوره .

70

حين تشن إسرائيل حربا على غزة، فإن كل القطاع يكون في مرمى النار، أولا لأن أبعد نقطة عن الحدود هي أقل من عشرة كيلو مترات، مع أن العدو بإمكانه أن يرمي حمم نيرانه من الشرق ومن البحر في الغرب، وهكذا فإن المسافة تصبح النصف، وثانيا لأن قطاع غزة كله منطقة ساحلية منبسطة ككف اليد، لا تضاريس طبيعية تعيق الاجتياح، وحتى بيارات الحمضيات التي كانت في الماضي، لم تعد قائمة حيث اجتاحها التوسع العمراني، لذا فإن المقاتلين حين يواجهون العدو، يختبئون في الأحياء، وبعد أن أنجزوا شبكة الأنفاق العسكرية، وهي عبارة عن مواقع متصلة فيما بينها بممرات أو شوارع تحت الأرض، لها بالطبع فتحات مخفية، لا أحد يعرفها سوى قادة القسام، هذه الفتحات عادة ما تكون في المنازل والبيوت الخاصة بقادة وكوادر الحركة ،والأنفاق عبارة عن شبكة عنقودية، مستمدة من

الوعي التنظيمي العنقودي وليس الهرمي للحركة، والذي ساعد على صمودها في وجه ضربات العدو الأمنية، وهناك فتحات خاصة بإطلاقالصواريخ، وهي تقع في مخارج الأنفاق، وغالبا ما تكون قريبة من الحدود الشرقية والشمالية، وبعضها يتجه غربا، مستهدفا في الوقت المناسب سفن العدو ومراكبه العسكرية، تحتوي الأنفاق على مكاتب قادة الجناح العسكري، ومنذ وقت وفرت لهم الملجأ الآمن، بعد أن كانوا يضطرون إلى التنقل بين المنازل والبيوت السرية، فلا يمكث أحدهم في بيت واحد أحيانا أكثر من أيام قليلة .

وعادة ما تبدأ الحروب على غزة، بمبادرة من القسام، فمع مرور الوقت صارت اللعبة بين الطرفين معروفة لهما، إن لم تكن كذلك بالنسبة للناس، والقسام يعرف "عيار" الرد الأسرائيلي ،وكل مرة تتحرك فيها حماس، لتخفيف ضغط الحصار، تطلق صاروخا أو أكثر للتحذير، فإن لم تستجب إسرائيل التي بالطبع ترد على كل تحرك، ولكن ردا متناسبا مع حجمه، لما تريد تحقيقه حماس، تزيد من عيار إطلاق الصواريخ، وبعد وقت بالطبع لجأت

لمسيرات العودة التي تتابعت طول عام كامل على حلقات أسبوعية أيام الجمعة، وهكذا فإن قادة القسام وقادة حماس، يعرفون متى تندلع حرب المواجهة، كذلك كلما قاموابالاحتكاك بإسرائيل، يقدرون حجم الرد وطبيعته، بل وأحياناأين يكون، لذا فإن الخسائر البشرية باتت محدودة بين الطرفين .ومنذ أن تم حفر الأنفاق العسكرية، بات قادة القسام بالتحديد في مأمن، بعد أن كان فقط القادة السياسيون هم الذين خارج دائرة الاستهداف بالاغتيال أو التصفية.

وحين أقترب موعد الحرب، كلف الشيخ بحماية الجبهة الداخلية، فسارع على الفور، بجمع كل المشبوهين، ممن تم التحقيق معهم من قبل، ومن لم يجر التحقيق معهم، لكن مكتب المعلومات الاستخبارية، ذكر أسماءهم بناء على علاقات شخصية غير مبررة مع مشبوهين، أو ممن ذكرت أسماؤهم في كشوفات من يبدو أنهم قادرون على توفير ما يحتاجونه من مال، وهم لا يعملون، وكان ذلك من باب الحيطة والحذر، فقد قام بسجنهم في سجونه الخاصة تحت الأرض، بعد أن قام بتعصيب عيونهم ،بحيث لم يعرفوا أين هم، وحتى يتعذر

على أي منهم الاتصال مع العالم الخارجي، وتقديم أية معلومة للعدو، حتى لو كان من بين هؤلاء واحد بالمائة، وكلف مرافقيه وأفراد جهازه الأمني أن يستمروا في مراقبة هؤلاء، والحرب توفر له فرصة الاعتقال بسهولة، فإن لاحظوا أمرا غريبا على أحدهم قاموا بإبلاغه على الفور، كذلك طلب منهم أن يراقبوهم وقت الصلاة، فيخبروه إن كان أحدهم لا يصلي، أو إن كان أحدهم لا يتقن الوضوء، ولم ينس بالطبع، أن يستعين بالأخوات حتى يتجنب مساعدة من لم تكشف من العميلات للعدو في حالة الحرب، وحين طلب منالقيادة الأمنية، أن تصله بواحدة من الأخوات اللواتي يعملن في هذا المجال، فوجيء بأنهم يصلوه بطالبة جامعية، كانت زميلة ابنته، كانت تلك سوزان التي حين عرفها جيدا تمنى الشيخ لو أن ابنته فدوى كانت ولدا، لرغب في تزويجها من سوزان، لأكثر من سبب، فهو ما زال في قرارة نفسه، يرى أنه من أصل مهاجر، وفي غزة الهالة ترافق أبناء العائلات المواطنة، رغم أنهم أقل عددا بكثير من المهاجرين، فعائلات قطاع غزة العريقة التي يشار لها بالبنان، كلها من المواطنين، أما المهاجرون فمهما زاد عددهم ،يبقون في نظر أبناء مدن القطاع، أولاد مخيمات،

وسوزان بنت من بنات إحدى هذه العائلات الثرية والمواطنة، كما أنها على قدر كبير من الجمال والرشاقة والشباب، وإضافة إلى كل هذا ،هي ذكية جدا، وقوية الشخصية، ولديها كل مواصفات القائدة النسوية، ولولا أنها متبرجة، أو سافرة، ولو أنها تقتنع بارتداء الحجاب، لكان لها شأن في هرم الحكم في قطاع غزة، فكّر في أن يخطبها لأحد مرافقيه، لكن لو أن مرافقه كان إبنه لأختلف الأمر، ولبذل كل جهده من أجل هذا.

لكن فدوى بنت وليست ولدا، وعلى ذلك فإنه حث ابنته علىمصادقة سوزان، وهي استغربت حين طلب أبوها منها أن تقتربمن سوزان بالتحديد دونا عن كل صديقاتها، وزميلات الرحلةاليومية من الجامعة وإليها، ظنت أول الأمر بأن أباها قد صرف النظر عن إيمان المندلقة نحوه، وهي على كل حال فتاة عانس ،تجاوزت الثلاثين بكثير، أما سوزان فأصغر منها بأكثر من عشر سنوات، وهي أجمل، ولهذا ظنت بأن أباها يفكر في سوزان ،ولكن هل يعقل بأن يخطر هذا على بال الشيخ الذي يعرف كيف يهتم بكل أمر ناجح، طردت الفكرة من رأسها، ورجحت أن يكون باعث الشيخ شيئا آخر، لكن ما هو هذا الشيء؟!

وما أن بدأت الحرب، حتى شوهد موكب الشيخ أبي حفص ينطلق باتجاه المقبرة الشرقية، الملقبة بمقبرة الشهداء، حيث سارع أحد مرافقيه ما أن وصلوا إلى الركض نحو قبر بعينه ،مكتوب على شاهده، عرين الشيخ إبراهيم المهدي أبي حفص ،وقام برفعها كما لو كانت مجرد ديكور منزلي، فظهرت فتحة النفق حيث اندس الشيخ ومرافقوه، ومن ثم قاموا بإغلاق شاهدة القبر ،وهكذا صار الشيخ ومرافقوه تحت الأرض، في مدينة الأنفاق .

رغم أنها لم تكن الحرب الأولى، وربما لن تكون الأخيرة ،أي أن الناس لم تكن في حالة هلع، أو خوف شديد، لكنهم كانوا في حالة قنوط، أو تسليم، ذلك أن كل قطاع غزة، مثل راحة اليد ،لا مناطق آمنه فيه، ولا أحد يعرف أين ستكون الضربة القادمةبعد لحظة، أو أين سيقع القصف، أو الغارة الجوية، وإذا كانالإسرائيليون يستهدفون مواقع أو عناصر أو مخازن عسكرية ،فإن الناس لا تعرف أين هي، والجار لا يعرف إن كان جاره أصلا على قدر من الأهمية في صفوف حماس، أو أنه مستهدف هو أو منزله، وما زاد الطين بلة، هو أن إسرائيل صارت تستهدف الأنفاق، وهي تحت سطح الأرض، أي قد تكون تحت كل منازل الناس وبيوتهم، وهم

لا يعلمون، باختصار، تجلس الناس في بيوتها، حيث لا ملاجيء في قطاع غزة، ولا تلال، ولا جبال ،حيث يمكن لأحد أن يختبيء وراء صخرة أو في مغارة، ولولا التحذير الذي يجيء قبل خمس دقائق عادة، لمات عبر الحروب المتواصلة نصف سكان القطاع، ورغم أن من تقصف منازلهم ينفدون بأرواحهم، إلا أن المال معادل الروح، يخرجون للحياة دون بيت أو مال أو ملابس أو أدوات منزلية، يخرجون من فم الموت للحياة في العراء مشردين، هائمين على وجوههم ،وهكذا صار الإنسان في غزة مخيرا بين موت عاجل أو حياة على هامش الحياة، دون أي أمل، بل دون أن يكون على ثقة بأنه لن يموت غدا.

والرجال أيام الحرب يكثرون من الصلاة، والنساء ترتديثوب الصلاة، وكلهم يبقون على طهارتهم، فهم جميعا يتوقعونالموت على حين غفلة، يكثرون من الدعاء، حيث لا يمتلكونسواه، وهكذا كان حال أم نبيل وفدوى، ومعهما أبو نبيل، هما في غرفة السيدة وهو في غرفته، لا يكادون يتناولون في اليوم رغيف خبز واحد، أبو نبيل يكثر من التدخين، ويسود الصمت، ولا شيء سوى التواصل مع الأخبار، ومشاهدة الغبار حين يتم إسقاط برج سكني، أو

مشاهدة الأضواء التي ترافق إطلاق الصواريخ إن كانت تلك التي تطلق على اسرائيل أو تلك التي تطلقها إسرائيل على قطاع غزة.

انطلقت رشقات الصواريخ باتجاه مستوطنات الغلاف، فدب الذعر بين صفوف الإسرائيليين في سديروت ونتيفوت، ناحل عوز وكرم أبو سالم وغيرها، فيما قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف الأبراج السكنية تباعا، فسقط الشهداء من نساء وأطفال ورجال مدنيين من سكان قطاع غزة، أما معظم المقاومين فهم تحت الأرض، فقط رجال الشرطة المدنية والعسكرية، الذين بعد أن يقوموا بإخلاء مكاتبهم ومقراتهم بشكل شبه تام، يبقون يتجولون لمنع أن تحل الفوضى من أي شكل، فيما الشيخ يظل في حركة دءوبة، بعد أن يلجأ للتخفي، ما بين تحت الأرض وفوقها، ولأنه يعرف بأن العدو يعرف موقعه ومكانته، كذلك بيته، فإنه توقع أن يجري قصف بيته الأسود، لذا طلب من فدوى ،أن تذهب فورا لعند أم نبيل وتمكث عندها، وذلك إذا تعذرحضور إيمان، لتأخذها لأي مكان تراه آمنا، وفعلا كان البيت الأسود خاليا حين تم قصفه وتدميره، إلا من أثاث رافق فدوى منذ ولدت .

ك ان يعلم ب أن البيت الأسود ف وق الأرض، المعلن والمكشوف، ساقط أمينا، وإنه يمكن للعدو أن يقوم بتدميره في أي وقت، لذا فإن مراهنته كانت على بيته الأسود الذي هو تحت الأرض، كفكرة وكراية، وكمقر قيادي، لابد أن يحل مكان البيت الأبيض في يوم قادم لا محالة، وكان يعرف كما يعرف كل أعضاء مجلس الشورى، بل وكل القادة العسكريين، بأن الضحايا من المدنيين ما هم إلا شهداء مخلدين في الجنة، وأن طريق الفتح شاق وطويل، دونه دماء تسيل كالأنهار، وأنه لا صلح بين الأيمان والكفر، وحين يتواجه الطرفان، فأحدهما قاتل والآخر قتيل، وأن الجهاد فرض عين على المسلم، عدم الوفاء به يدخله النار، وأن الموت في سبيل الله هو الشهادة التي يدخل بها صاحبها الجنة ،وفي الجهاد يصيب المؤمن إحدى الحسنيين، فما أعظم الحياة بالجهاد في سبيل الله، وما أتفهها دون ذلك .

71

وما أن حطت الحرب أوزارها، حتى أنكفأ يعدد ما حدث خلالها، من كل النواحي، فرح كثيرا، حين شاهد العدو يجبن عن اجتياح القطاع، واحتسب كل من قضوا شهداء عند ربهم يرزقون، بمن فيهم من عاشت أيامها الأخيرة وهي تحلم بالزواج منه، لكنها قضت شهيدة، لعل ربها يجعلها إحدى زوجاته في الجنة، ولم يصح الشيخ من نشوة النصر والتمكين، إلا وابنته فدوى تقول له:

- أبي، من فضلك اتصل بالدكتور محمد، فإن كان ما يزال راغبا بي زوجة في الحلال، فأنا موافقة .

لم يصدق ما سمعته أذن اه، لذا لم يسارع إلى الاتصال بالدكتور، رغم أنه وعد إبنته بأن يفعل، وذلك بعد أن لاحظ أنها قد دخلت في حالة اكتئاب جراء ما حصل أيام الحرب من دمار أتى على بيتهم الذي سجل كل فصول ذكرياتها، والذي احتوى كل ما تركته لها أمها من ذكرى، وكل ما كانت تعتبره أشياء خاصة وعزيزة على قلبها، ثم من سقط من شهداء، في مقدمتهم من أحبتها كما لو كانت أختها الكبرى، أو حتى أمها، وكانت تحتل في قلبها المكانة الثانية بعد نبيل.

اتصل الشيخ بعد أيام بالدكتور محمد، وسأله عن أحواله ،ومازحه سائلا إياه إن كان قد تزوج، فرد عليه الدكتور بأن الحرب هي التي منعته عن ذلك، لذا فإنه بعد مرور أربعين يوما سينوي إن شاء الله . وعلى غير عادة الشيخ، قال للدكتور بأنه مشتاق له، ويريد أن يراه ليقف عند حدود تحليله لمسارات الحرب ونتائجها، بكل صراحة، لاستخدامه الخاص، وليس للنشر .

اتفق الرجلان على اللقاء بعد أيام، ولكن ليس في مدينة القاهرة الصغرى، ولا في مقهى الصيادين، ولكن في بيت الشيخ ،الذي شرع المرافقون على إعادة بنائه بسرعة البرق .

72

ما كاد نبيل يشعر بفرحة تحقيقه أول خطوة على طريق خلاصه مما تركه وراءه، بعد أن وصل اليونان، حتى بدأ القلق ينهش أعصابه على أبيه وأمه، وحتى على فدوى، يتصل بهما، حين تتوفر شبكة الاتصال، يبحث عنهم جميعا فلا يجد أحدا، بحث عن صفحة جروب بنات غزة

فوجد مكتوبا على الخلفية فقرة تكاد تلخص مشاعر البنات بعد كل تلك التجربة اللاتي عشنها معا:

سودوا عيشتنا والله، تقولوا إنه إحنا مدفونين بالحياة، وإنه غزة صارت مقبرة للأحياء، مش سجن جماعي بس،،، عشان هيك سمينا جروبنا هذا "مقبرة الأحياء"،، يعني كل واحد بده يفكر بطريقة ما إنه مدفون بالحياة، إحنا كلنا شباب كلنا حيوية ،مفعمين بالحياة، المشكلة مش فينا، المشكلة في المقبرة اللي إحنا فيها، والمقبرة هي حصار وهي مجتمع وسلطة حكم، قوات أمن وقوانين وأمر واقع !

وما أن أعلن عن وقف إطلاق النار، حتى كان أبوه قد اقتنع بضرورة أن يلحقا به، فقام سعيد البشوش بإيداع مركب صيده عند أبي العبد السيد سمير، كما قامت السيدة أم نبيل، بإعطاء مفاتيح الدار للشيخ إبراهيم وأوصته على دجاجاتها وطيورها ،ثم غادر الرجل وزوجته إلى تركيا عبر مصر، بعدما دفعا رشوة التنسيق. وحقيقة الأمر أنه ليس فقط دار أبو نبيل هم من غادروا فقط، بل صار معظم الناس يفكرون جديا في ترك وطنهم بعد أن ضاق عليهم، وفي الهجرة إلى بلاد الله الواسعة .

73

حضر الدكتور محمد بعد أيام على الموعد، فأخذه الشيخ ومعه فدوى إلى بيت أبي نبيل، حيث صار الشيخ يقوم بوضع يده على كل بيت يهجره أهله، دون أن يقوموا بتوكيل أحد فيه ،أو بإسكان أحد أقاربهم أو معارفهم أو حتى تأجيره، فجعل من بعض البيوت مخازن، وبعضها مكاتب، وجعل من سطوح

بعضها مواقع مراقبة واستطلاع، كما بدأ يفكر في تزويج مرافقيه من فتيات الحي الفقيرات، في زواج اسماه زواج السترة، وهناك أعدت فدوى الشاي، وجاءت به، وسلمت على الدكتور محمد ،ثم قدمت الشاي له ولأبيها، وحين همت بتركهما وحدهما ،طلب منها أبوها الجلوس وقال:

- الحكي اللي بدي أحكي لك إياه يا دكتور محمد، لازم فدوى تسمعه لأنها هي المعنية فيه، باختصار، أنا سألتك لما اتصلت فيك إن كنت تزوجت وألا لأ، ومن باب المزح، بس كان هدفي أذكرك بطلبك إيد بنتي مني قبل فترة، ويومها

هي رفضت ،وأنا ما كان عندي مانع، المهم النصيب، اليوم بسألك إذا كنت لسة طالب إيدها، هي وأنا ما عنا مانع.

تفاجأ الدكتور وقال:

- بتشرف كتير يا شيخ بنسبك، وطبعا كتير بيسعدني إنه توافق الست فدوى على الزواج مني، وأنا مش بس طلبت إيدها، لا باطلب إيدها اليوم وبكرة وكل وقت، وأنا تحت أمركو، من إيدكو هادي لإيدكو هادي، تؤمروني بأي إشي أنا حاضر .

حين ذلك تدخلت فدوى وسألت أباها إن كان يسمح لها بالكلام، وحين أجابها بالإيجاب، قالت:

- يا دكتور أنا موافقة، لكن إلي شرط واحد، بعد إذن أبوي ،هو لهالحظة ما بعرف شو هو.

نظر الدكتور إلى الشيخ، الذي بدوره استغرب فقال عنه:

- ايش هو الشرط يابا؟قالت:
- أن تكون الدخلة في تركيا.

رد الشيخ:

-قصدك يعني شهر العسل؟ إذا هيك انتو اتفقوا، وأنا ما عندي مشكلة، المهم تطلعوا من هان كاتبين كتابكو.

قال الدكتور دون تفكير أو تردد:

- موافق، كمان أحسن إلي، بلا ما أولادي يصير عندهم رد فعل، خليهم يعرفوا بعد ما إحنا ننبسط، وبعد وقت بيكون أحسن.

قال الشيخ:

- على بركة الله

وطلب من ابنته أن تتركهما وحدهما، ليسمع من الدكتور محمد تحليله للحرب الأخيرة .

كانت وجهة نظر الدكتور محمد هي أن الحرب ما هي إلا لعبة سياسية، وأن إسرائيل صحيح أنها تخشى دائما الخسائر البشرية وتتجنبها، لكنها فيما يخص أمنها الاستراتيجي لا تتهاون قيدأنملة، ولو كانت قوة غزة العسكرية، تتجاوز التوظيف السياسي ،لدرجة المس بالأمن الاستراتيجي الإسرائيلي، لحرقت الدنيا ،لكن إسرائيل تكتفي بفرض الحصار، الحصار الذي أنهك العراق خلال اثني عشر عاما، ودفعه للسقوط بعد ذلك خلال أيام وجيزة ،والحصار

الذي شلّ كوبا ومنعها من أن تنقل شرارة الثورة لكل أمريكا اللاتينية، ولعبة إسرائيل تتمثل في العمل وفق نظرية لا يموت الذئب ولا تفنى الغنم، تريد أن يبقى الانقسام قائما، وحماس تريد أن يبقى حكمها في غزة قائما، هنا التقت المصالح باختصار، المهم في الحرب الأخيرة، كما كل الحروب من قبل، إسرائيل تحقق كل مرة الوقوف عند القدرة العسكرية للقسام، لكنها تخسر أخلاقيا.

انزعج الشيخ وقال له: أريد تحليل النتائج العسكرية للحرب ،ولا أريد تحليلا سياسيا.

ضحك الدكتور وقال:

- لا تنزعج مني يا شيخ، لديك قائمة بالخسائر البشرية على الجانبين، ثم الخسائر في المرافق، والتقديرات المالية لها، ولا تنسى أن تقارن ما بين ميزانية إسرائيل وميزانية غزة، أقول لك أنت فقط، إذا كانت الحروب لا تكسر شوكة القسام، فهي تهد حيل المجتمع والناس الذين جاعوا ومرضوا وأنهكوا .

فهم الشيخ مقصد الدكتور، وأضاف في سره:

-حتى أنا خسرت بيتي، وخسرت إيمان، وحتى سوزان السافرة لكنها لم تكن كافرة، وكنت أفكر في إقناعها بالزواج من أحد أتباعي، لكنها فضلت الهجرة هي أيضا، ودون أن أعرف ،غادرت للخارج .

74

ودعت أباها على عجل، وشعرت كأنها تطير أو تحلق في الفضاء، كما لو كانت طائرة مسيرة، أو حتى طائرة ورقية، أو بالونا ملونا، ينسجم مع الهواء، ولم تدر سر سعادتها التي بدت متعددة الدوافع، فهي قد حققت لها رغبة ما مؤخرا، وهي التي عاشت حياتها على هامش الحياة، بلا أم وبأب لا تكاد تراه، ولا تذكر يوما أنه قد أخذها في حضنه فلاعبها، أو أنه فاجأها يوما بلعبة أو هدية ،وهي تخرج من "مقبرة الأحياء"، كما كانت تطلق على قطاع غزة ،هي وصديقاتها، لدرجة أنهن قد طرحن موضوع الحصار يوما للحوار العلني على الجروب، وكان كثيرون قد اتفقوا معها على هذا الوصف، تخرج للهواء الطلق، تخرج لأول مرة وهي التي

صارت اليوم في عقد عمرها الثالث، وقريبا تعد في تقاليد وثقافة قطاع غزة عانسا، تخرج لتتحرر من سطوة الأب، وقهر المجتمع ،من الحصار الخارجي والداخلي المركب والذي تزيد وطأتهعلى النساء تحديدا، وتتضاعف قسوته كلما كانت المرأة لديها طموحا، أو كلما صارت متعلمة ومن ثم مثقفة أكثر، تخرج من بيت القهر، من القمقم، من السجن، إلى حيث ربما تلتقي مجددا بالرجل الوحيد الذي نبض له قلبها في هذه الدنيا .

تخرج فدوى من بيت العنكبوت، الذي كان أبيضا، هوى بذكرياتها، ويصير اليوم أسودا لا يعدها إلا بما هو ظالم ومظلم ،تخرج فدوى لتنفد بجلدها كما فعل كل من سبقها، وكما سيفعل كل من سيلحق بها بعد حين، ولن يبقى وراءها سواه، متلفعا بأرديته السوداء، وحده ومن معه، يقيمون ما يشاءون فيما بينهم ،آه كم تمنت لو كان لها إخوة في هذه الدنيا التي ضاقت عليها، بأب دون أم ودون إخوة، لكنها اليوم تضع قدما في مستقبل مختلف ،تأمل أن تعيش فيه بهدوء، دون ضجيج الموت والدمار، وصخب الشعارات والتكبيرات والتهليلات، تتمنى فقط بأن يكون

لها بيت وأبناء، تحبهم ويحبونها، تمنحهم ما حرمت هي منه .

وما أن صارت على الجانب المصري من رفح، حتى نظرت عبر الحدود، وكانت الشمس قد سقطت نحو الغرب، رأته يجلس على سطح بيته الأسود، متشبثا بسلاحه الأوتوماتكي، ومن حوله أتباعه الذين توزعوا على أسطح البيوت التي هجرها أهلها ،ينظر للبحر، فلا يكاد يرى أحدا، لا صيادين ولا مصطافين، بل لعل السمك نفسه قد هرب من الشاطئ، أو أنه قد نام أخيرا، ثم ينظر للشوارع وقد خلت من المارة، إلى البيوت والمنازل فيراها مطفأة، لولا محاق القمر الذي بدأ يظهر في السماء، لحل الظلام الدامس، بحيث لا يرى المرء أصبعه من أمام أنفه، صمت مطبق ،وليس هناك سوى نعيق الضفادع في برك الشوارع، وليس سوى هديل من تبقى من حمام أم نبيل، ثم على مقربة من الحدود، يرى حين يضع منظاره الكشاف الليلي، كشافات العدو، وطائراته المسيرة، أما الخفافيش، أي أتباعه كما كان يسميهم هو باعتزاز ،على اعتبار أن الليل صديق الرجال، فيبقون حراسا لما يلقيه عليهم من أوامر، يخرجون لأسطح البيوت التي هجرها أهلها في الليل، وقبل

أن تشرق الشمس، ينسلون إلى حيث يعرف كل منهم موقعه تحت الأرض .

القاهرة

منتصف أغسطس/آب

منتصف سبتمبر/أيلول

2021